بلد سابقة

فال ماكدرميد

ترجمة أحمد عبد المنعم

بلا سابقة

تأليف
فال ماكدرميد

ترجمة
أحمد عبد المنعم

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

هنـــداوي

بلا سابقة

فال ماكدرميد

Clean Skin

Val McDermid

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٧٢٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لسي جاي إم بي ليمتد عناية ديفيد هايام أسوشيتس ليمتد.

Copyright © Val McDermid, 2006.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١١
الفصل الثالث	١٥
الفصل الرابع	١٩
الفصل الخامس	٢٣
الفصل السادس	٢٧
الفصل السابع	٣١
الفصل الثامن	٣٥
الفصل التاسع	٣٩
الفصل العاشر	٤٣
الفصل الحادي عشر	٤٧
الفصل الثاني عشر	٥١
الفصل الثالث عشر	٥٥
الفصل الرابع عشر	٥٩
الفصل الخامس عشر	٦٣
الفصل السادس عشر	٦٧
الفصل السابع عشر	٧١
الفصل الثامن عشر	٧٥
الفصل التاسع عشر	٧٩

الفصل الأول

عندما يموت طفل، يتألَّم الجميع؛ الأسرة، والأصدقاء، والأغراب على حدٍّ سواء. أما عندما يُقتل طفل، فإن هذا الألم يمتزج بالغضب. الفارق الوحيد هو تدخُّل المزيد من الغُرباء. أطباء يحاولون اكتشافَ كيفية حدوث الجريمة. رجال شرطة يحاولون الكشفَ عن هُوية مرتكب الجريمة. صحافيون يتجمَّعون حول القضية مثلما تتجمَّع الزنابير حول المربَّى. والجميع يتأثَّرون تأثُّرًا عميقًا.

هذا ما حدث بالضبط عندما ماتت كاتي فاريل. كان واضحًا منذ البداية أن الحريق الذي قتلها لم يكن عرَضيًّا. فقد شمَّ رجال الإطفاء رائحةَ الوقود بمجرَّد وصولهم إلى مكان الحريق. كما أن الحريق بدأ خارج غرفة نومها مباشرةً؛ وهو مكان ليس من المفترض وجود وقود فيه. تمكَّن بقية القاطنين في المنزل في تلك الليلة من النجاة بسهولة؛ والدتها، ووالدها، والفتاة الإسبانية التي تطهو طعامهم وترعى كاتي في غياب والدَيها. ولكن كاتي لم تنجُ. لم تتوفَّر لها الفرصة لتفعل.

اسمي آندي مارتن، وأعمل شُرطيًّا. سمِعت عن وفاة كاتي فاريل عبر مكالمة هاتفية أيقظتني في الثانية صباحًا تقريبًا. لا أحقِّق عادةً في هذا النوع من القضايا. فمجال عملي هو الجنايات، ويعمل فريقي على تقديم عُتاة الإجرام إلى المحاكمة؛ كرجال العصابات، ومُهرِّبي البَشَر، وتجار المخدرات، واللصوص الكبار. إنهم حثالة البشر، نعم؛ ولكنهم ليسوا من نوعية حثالة البشر الذين قد يقتلون فتاةً في التاسعة من عمرها حرقًا في غرفة نومها.

استدعوني لأن كاتي فاريل لم تكن مجرَّد فتاة في التاسعة من عمرها. بل كانت ابنة جاك فاريل، وكنت خبيرًا فيما يتعلَّق بجاك فاريل. إذا ما ظهر اسمه على أيٍّ من أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالشرطة، تظهر بجانبه إشارةٌ مكتوب فيها «اتَّصل برئيس مكتب

التحقيقات آندي مارتن». لم يكن لفاريل سِجِلٌّ إجرامي، ولكن هذا لم يكن يعني أنه رجلٌ نزيه. كانت عصابة فاريل تعمل في جميع الأعمال القذِرة التي يمكنك أن تتخيلها: مخدِّرات، سلاح، دعارة، إباحية. أيًّا كان العمل القذر الذي سيتبادر إلى ذهنك، ستجد أنهم متورِّطون فيه. كانوا يبيعون ويشترون البَشَر كما لو كانوا سِلَعًا يتبادلونها عبر موقع إيباي. وكنا نحاول الإيقاعَ بجاك فاريل طوال سنوات، ولكننا لم نتمكن من إثبات أي شيء عليه. كان لا يزال ما نطلق عليه اسم: شخص بلا سوابق، شخصًا بلا سجلٍّ إجرامي، ما يعني أنه يملك جميعَ حقوق أي مواطن شريف وحرياته. ولكني كنت أعلم حقيقته. وكنت أرغب بشدة في الإيقاع بجاك فاريل.

لذا اتصَلوا بي بالطبع. لأن كاتي فاريل ماتت. ماتت لأن شخصًا ما قرَّر أن يضرب والدها ضربةً موجعة للغاية.

عندما وصلتُ إلى هامبشر، كان جاك فاريل واقفًا حافي القدمين خارج منزله الذي تبلغ مساحته نصفَ مساحة استاد ويمبلي تقريبًا. كان عاريًا إلا مِن سروال داخلي قصير وبطانية ألقاها شخصٌ ما على كتفيه. بدا وكأنه هو مَن مات.

رأيت في تلك الليلة أمرَين لم أرَهما من قبلُ طوال حياتي. رأيت رجلًا دُمرت حياته الجميلة بضربة واحدة. كما رأيت وُشوم جاك فاريل.

وصف لي كثيرون تلك الوشومَ من قبل؛ ألوانًا زاهية، وأنماطًا مميزة تدل على المهارة الاستثنائية لرسَّام الوشوم الذي رسمها. كان وشمُ تِنِّين يُغطي جذعه، ويختفي ذيله تحت شريط خَصر سرواله الداخلي القصير، ويعود ليظهر مجددًا على فخذه اليُسرى. كانت جميع حراشفه الخضراء محدَّدة بوضوح. وكان لسان لهب قِرمزي يعبُر الجانب الأيمن من صدره صعودًا إلى كتفه. وعلى إحدى ذراعيه رأيت وشمًا لمحاربِ ساموراي شاهر سيفه كما لو كان بصدد مهاجمة التنين. وعلى الذراع الأخرى كان هناك وشم لامرأة جميلة تغطي جسدها العاري بيديها وشعرها الأحمر الطويل. كانت هناك قصة مكتوبة على جسد جاك فاريل دون كلمات.

كانت قصة يحب إخفاءها عن العيون غالبًا. فطوال فترة مراقبتي لجاك فاريل، لم أرَه قطُّ يرتدي قميصًا قصيرَ الأكمام. على النقيض من أغلب الأشرار الذين كانوا يُظهِرون وشومَهم كما لو كانت دليلًا مرئيًّا على مدى قوَّتهم، كان فاريل يخفي وشومه. قيل عنه إنه يخلع قميصه عندما يكون بصدد القتل بدم بارد. ويُشاع أن وشوم جاك فاريل هي الشيء الأخير الذي رآه بعضٌ من الأشرار في هذا العالم قبل أن تنتهي حياتهم. كانت تلك طريقة أخرى لضمان أن يظل أعداؤه خائفين منه.

ولكن لم يكن جاك فاريل ليخيف أيَّ أحد في تلك الليلة. لقد سلبته النار أشياءَ أكثرَ من ابنته الحبيبة كاتي. كان أشبه بقوقعة خالية؛ فقد خمدت نار الحياة في داخله. توجَّهتُ نحوه مرافقًا الشرطيَّ الذي كان مسئولًا عن التحقيق بصورة رسمية عندما ذهب ليتحدَّث إليه، وكان التحدُّث إليه أشبه بالتحدُّث إلى رجلٍ مات وانتهى.

طرحنا عليه الأسئلة التقليدية. وأجاب فاريل عنها كما لو كان رجلًا آليًّا. ثم قال الشرطي: «هل رأيتَ أحدًا يَجُول حول المنزل وليس من المفترض به أن يفعل؟»

اختفى الضَّعف من عينَي فاريل وتصلَّب جسده. ثم صاح قائلًا: «لو كنت رأيت أحدًا، لتعاملتُ معه.»

سألته: «ماذا تعني بقولك: «تعاملت معه»؟»

فَحَصتني نظرةُ فاريل من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ. بدا أنه تمالك نفسه بالكاد، كما لو أنه أدرك أن موت كاتي قد لا يكون الأمر السيئ الوحيد الذي قد يحدث هذه الليلة. فقال: «كنت سأتصل بالشرطة. ماذا تعتقد أني أعني؟»

لم أُجِبه ناظرًا في عينيه اللتين تحدِّقان بي بنظرة نارية. ثم كسرت الصمت أخيرًا. وقلت: «هل لديك أيُّ أعداء؟ هل هناك مَن قد يُضمِر ضغينة ضدك؟ شخصٌ ربما قمت باستفزازه؟» حافظتُ على هدوء صوتي متظاهرًا بأني لا أعرف شيئًا عن حياته.

«هل تعني أني مَن يتحمل وزرَ ما حدث؟» كان الآلي قد اختفى وحلَّ محلَّه رجل يتألم خرج من بين الظلال. كانت ملامح وجهه مُلتَوية من فرطِ الانفعال. ثم قال: «هذا ليس طبيعيًّا. ليس هذا ما يحدث عندما تُغضِب شخصًا ما. مَن فعل هذا مجنون بالتأكيد.» ثم أشاح بوجهه بعيدًا وضمَّ البطانية حوله كما لو أنه اكتشف للتَّو مدى برودة الجو. ثم قال بصوتٍ خفيض للغاية سمِعته بصعوبة: «اتركاني وحدي لأحزن على ابنتي كاتي.»

ثم سار مبتعدًا. تحرَّكت لأتبعه، إلا أن الشرطي المحلي أمسك ذراعي. وقال وهو ينظر إليَّ وكأني لست إنسانًا: «تمهَّل قليلًا. لقد فقد الرجل ابنته لتوه.»

أبعدت يده عن ذراعي. وقلت: «إنك لا تعرف حقيقة مَن تتعامل معه، أليس كذلك؟ دعني أخبرك بشيء عن جاك فاريل. إذا ما اعتقد أنَّ قتلَ طفلِ شخصٍ ما هو أفضل طريقة للَفْت انتباهه، فسيفعل ذلك دون تردُّد. ما يفاجئني هو أن شخصًا ما امتلك ما يكفي من الجرأة ليفعل ذلك به أولًا.»

الفصل الثاني

بعد أربع ساعات، انتقلنا إلى مركز الشرطة المحلي. وأخبر رئيسي رئيسَ الشرطة المحلية أننا مَن سنُدير التحقيق. لم يكونوا سعداءَ بذلك؛ لأنهم في أغلب الظن سيؤدون كل الأعمال المرهِقة، بينما نجلس نحن في الظل ونحصل على التقدير.

وزَّعت المهام خلال الاجتماع الصباحي. كلَّفت فريقًا بالذهاب للقاء زوجة فاريل التي ذهبت لتُقيم في شقتهما في تشيلسي. أُخِذت المربِّية الإسبانية إلى المستشفى بعدما عانت من الاختناق بالدخان، فكلَّفتُ فريقًا آخر بالذهاب للتحدث إليها بمجرد أن تكون قادرة على ذلك.

لم يعرف أحدٌ بالطبع أين اختفى جاك فاريل. فبعد فترة قصيرة من حديثي معه ظهرت سيارة جيب شيروكي يقودها مجرم حليق الرأس، ميزت أنه أحد أهم رجال فاريل. وركب فاريل السيارة وانطلقا. افترضتُ أن رجال الشرطة المحليين قد سألوهما عن وجهتهما. ولكن هذا لم يحدث. لقد تركوه يذهب إلى مكانٍ يعلمه الله وحده من دون أن يأخذوا منه أيَّ شيء كضمان، سوى رقم هاتف محاميه.

ولكني لم أكن قلِقًا. ربما لا يعرفون مكان جاك فاريل، ولكني أعرف أين سيكون. كنت أعرف أنه رجلٌ لا يُغَير عاداته. كنا نراقبه عن كثب منذ بضعة أشهر، ولم يغيِّر روتينه اليومي قطُّ خلال تلك الفترة. لم يستغرق الأمر منا أيامًا كثيرة لنعرف كيف ظل بلا سوابق طوال تلك الفترة. كان يعرف جيدًا كيف يستبِق أفعال خصومه. لم تكن مراقبته عن كثب مُجدِية. فلم يرتكب جاك فاريل أي خطأ. لقد زاولت هذه المهنة ستَّ سنوات حتى يومنا هذا، ولم أرَ في حياتي أحدًا يتكبَّد كل هذه المتاعب ليضمن عدم تورطه في أي شيء.

استدعيت محققَين من الفِرقة المحلية بدَوَا أقل غباءً من الآخرين. وقلت لهما: «أتوقَّع أنكما أصبحتما تعرفان أن جاك فاريل شخص سيئ. أريدكما أن تتحدثا إلى فاريل مجددًا. لا تُثقِلا عليه بالأسئلة، كل ما أريده هو مراجعة أحداث الليلة الماضية مرة أخرى. ولكن ركِّزا أسئلتكما على السبب الذي قد يدفع شخصًا ما لاستهداف ابنته الصغيرة الوديعة.»

تبادلا نظراتٍ قلِقة. ثم قال أصغرهما، وقد احمرَّ وجهه من الإحراج: «إننا لا نعرف مكان فاريل يا سيد مارتن.»

فقلت: «أعلم ذلك. ولست واثقًا أنا أيضًا من مكان وجوده الآن. ولكني أعتقد أن لديَّ فكرة عن المكان الذي يمكننا أن نعثُر عليه فيه. إليكما ما اعتاد على فعله كلَّ صباح حتى الأمس. في السابعة والنصف، تقف سيارة بي إم دبليو سوداء ذات دفع رباعي أمام بوابة قصر جاك فاريل. سائق السيارة هو فرانسيس رايلي، الشهير باسم فانسي. إنه الرجل الثالث من حيث الأهمية في عصابة فاريل. وفي المقعد المجاور للسائق، يجلس داني تشو، الرجل الثاني في عصابة فاريل.

تتحرَّك السيارة حتى تصل إلى المنزل الذي يخرج منه فاريل مُرتديًا سروال عَدْو قصيرًا وصديريًّا. يخرج تشو من سيارة الدفع الرباعي مرتديًا ملابس العَدْو أيضًا، ويأخذ حامل بدلة من المربية الإسبانية التي تكون واقفة عند باب المنزل. يضع تشو حامل البدلة في السيارة، ثم ينطلق وفاريل يَعدُوان عبر الأراضي المحيطة بالمنزل بسرعة ثابتة. هل تتابعان ما قلت حتى الآن؟»

أومأ الاثنان برأسَيهما كما لو كانا دُميتَين.

استطردتُ قائلًا: «ثم بعد ثلاثة أميال من العدو وسط الأراضي الزراعية المفتوحة، يدخل الاثنان موقف سيارات نادي سميثسون، الذي قيل لي إنه أفخم الأندية الترفيهية في هامبشر. وهناك، يقف فانسي رايلي في انتظارهما ومعه حامل البدلة. ويدخل الرجال الثلاثة النادي معًا. يتجه تشو نحو غرفة البخار، بينما يسبح رايلي وفاريل عشرين دورة بطول حمام السباحة، ثم يقضيان عشر دقائق في بركةِ استشفاءٍ مزدحمة للغاية.

ثم يجلسون معًا لتناول الإفطار في مطعم النادي. الطاولة نفسها كل يوم. ويتحدَّثون عن الرياضة، وعن أُسَرهم، وعن الأسواق المالية.»

كنت أعرف ذلك لأننا ثبَّتنا أجهزةَ تنصُّت في الطاولة. ولكن لم يكن ممكنًا تركيب أجهزة تنصت في حمام سباحة أو بركة استشفاء. وبغض النظر عما يُعرَض على شاشات التلفاز، من المستحيل تقريبًا التنصُّت على محادثة تدور بين شخصين يعدُوان وسط الأراضي الزراعية.

لم تستغرق منا معرفة كيف تدير إمبراطورية جاك فاريل نفسها بالضبط سوى يومين من المراقبة. كان تشو ورايلي يقدمان تقاريرهما إلى فاريل خلال التمارين الرياضية الصباحية ويُصدر فاريل أوامره بخصوصها خلال تلك المدة. لم يتحدثوا قط عن أعمالهم غير القانونية في سياراتهم، أو مكاتبهم، أو منازلهم، أو المطاعم التي يترددون عليها عادةً. كان جاك فاريل يتصرف في أي مكان يمكن فيه التنصُّت عليه إلكترونيًّا وكأنه مَلَك. كان روتينه الثابت نقطةَ قوة. ولكن من الممكن استغلاله كنقطة ضعف أيضًا.

ابتسمتُ للشرطيين الريفيَّين. وقلت: «هذا هو المكان حيث ستجدان جاك فاريل؛ مرتديًا سروال العدو القصير، في موقف سيارات نادي سميثسون. وإذا لم تجداه هناك، فسوف تفسدان عليه وجبة إفطاره التي يتناولها بجوار حمام السباحة، أليس كذلك؟»

بدا أنهما ليسا واثقين مما عليهما فعله. وقال أصغرهما ذو الشعر الأحمر الذي ينتشر النَّمش على بشرته كما لو كان طفحًا جلديًّا لم يُعالَج: «لقد ماتت ابنته حرقًا. هل تعتقد أنه سيذهب للسباحة في نادٍ صحي؟» وارتفع صوته استهجانًا في نهاية السؤال.

تدخَّل الرقيب المحقِّق بن ويلسون، مساعدي خلال جميع عملياتنا الكبرى، في الحوار. وقال: «يبدو أنه لن يقلق بشأن توصيل ابنته للمدرسة بعد الآن، أليس كذلك؟»

امتعض الشرطيان كما لو أنهما تلقَّيا صفعتَين على وجهيهما. ورمقتُ بن بنظرة حادة. يكرهُنا رجال الشرطة المحلية البسطاء دائمًا بسبب اقتحامنا لخصوصياتهم. ولا حاجة بنا لأنْ نعطيهم سببًا إضافيًّا لكراهيتنا. فقلتُ، محاولًا أن نبدو جميعنا كزملاء: «تجاهلاه. لقد نشأ في البراري. نعم، أعتقد أنه سيذهب إلى النادي الصحي، وإليكما السبب.

أيًّا كان مَن ارتكب هذه الجريمة، فقد ارتكبها لكي يهزم جاك فاريل. سواء ارتكب الجريمة بدافع الانتقام أو الاستيلاء على أعمال فاريل، فالأمر برُمَّته يتعلق بإخضاع جاك فاريل. وقد راقبت فاريل مدةً طويلة، وأعتقد أنهم قد أساءوا الحكم. لم يكن موت كاتي ليحمل فاريل على الاستسلام. بل سيجعله يثبت قدميه أكثر. إنه لن يبقى على القمة فحسب، بل سيدمر أيَّ شخص قد يعتقد أن له يدًا فيما حدث لابنته. وعليه، ثمَّة أوامر عليه أن يوجِّهها لرجاله اليوم. ولهذا السبب، يا رفاق، سيذهب إلى النادي الصحي.» صرفتُهما لأداء مهمتهما، وأنا على يقين من أني مُحق.

يُقال، الغرور بداية السقوط. لذا، كان يجدر بي أن أستعد لحقيقة أن كل شيء سيتداعى بحلول موعد الغداء.

الفصل الثالث

أول فريق عاد كان الفريق الذي كلفتُه بالتحدث إلى مارتينا في شقتها الناصعة البياض، ذات السقف العالي، المطِلة على النهر. وأدركت بمجرد دخولهم أن المقابلة لم تسِر على ما يُرام. كانت رءوسهم مُطأطأة وأكتافهم مُتهدِّلة، وقد فقدوا بالكامل تلك الحيوية التي خرجوا بها من هذا الباب منذ بضع ساعات.

كانوا يسيرون متثاقِلِين حتى وصلوا إلى المكتب الذي احتللتُه. سألتهم رافعًا حاجبيَّ: «كيف سار الأمر؟»

قالت المحقِّقة: «ليس جيدًا. كانت مُشوَّشة تمامًا.»

قال شريكها: «لم تكن على هذا الكوكب. أعتقد أنها تتعاطى مخدِّرات. ليست المخدرات التي تتناولها عندما تذهب إلى النوادي الليلية في عطلة نهاية الأسبوع. بل المخدرات التي يُعطيك إياها الأطباء لكي يمنعوك من التفكير في أن طفلك قد مات.»

قالت المرأة: «أعطاها الأطباء جرعاتٍ كبيرة من العقاقير المهدئة. لن يمكننا الحصول على أي شيء ذي معنًى منها. ربما ليس في هذه الحياة، على أي حال.»

سألتها: «هل تعتقدين أن فاريل هو مَن أمر الأطباء بذلك؟» كنت مهتمًّا بمعرفة آراء أشخاص من خارج دائرة مراقبة فاريل.

هزَّت المرأة كتفيها. وقالت: «إذا ما فقدت طفلك بهذه الطريقة، فسترغب في نسيان الأمر بأي طريقة كانت. أعتقد أن الأطباء يعطونها العقاقير بناءً على رغبتها هي.»

أضاف شريكها بكآبة: «نعم، وعندما تستعيد وعيها، مَن يدري ما الذي ستتذكَّره.»

كنت مضطرًّا إلى أن أوافقه الرأي. فلم يبدُ أن مارتينا ستفيدنا كثيرًا. فتلك الحالة التي تمر بها لن تمكِّنها من إخبارنا بأي شيء مفيد عمَّن قد يرغب في قتل ابنتها حرقًا، أو

السبب الذي قد يدفعه لفعل ذلك. والأهم من ذلك، من وجهة نظر فاريل، أنها لن تتمكَّن من إخبارنا أين يوجد هو أو ما الذي يخطِّط له.

زاد الطين بلةً عندما عاد الفريق الثاني قبل موعد الغداء. كانا قد خرجا وعلى وجهيهما أمارات الجدية والاهتمام، هكذا يبدو عملاء البحث الجنائي الصغار عندما يرغبون في إثبات جدارتهم. ولكنهما أصبحا يبدوان مهمومَين الآن، ربما أكثر من الاثنين اللذَين سبقاهما. سقط قلبي بين قدميَّ. وفكرت؛ هذا ما تحصل عليه عندما ترسل الصِّبية ليؤدوا عمل الرجال. لقد فشِلا في مهمتهما.

تبين فيما بعدُ أن الأمر أسوأ مما تخيَّلت. قال أقصرهما قامةً وأنحلهما بدنًا؛ الأشبه بلوريل، بينما الآخر يشبه هاردي: «لقد هربَتْ.» ولكنهما لم يكونا في خفةِ ظل لوريل وهاردي، ولم يكن هناك ما يمكن أن أضحك عليه.

أومأ هاردي برأسه في تعاسة. وقال: «ليست لديَّ أدنى فكرة عن مكانها. لقد عولجت في المستشفى من آثار تنشُّق الدخان، ثم خرجت. كان في المستشفى شرطيان ينتظران للتحدث إليها، ولكنها قالت إنها مستاءة للغاية. وقالت إن فاريل أخبرها بأن تذهب لتقيم في فندق محلي، فأوصلها الشرطيان حتى مدخل الفندق.» ثم خفض بصره ناظرًا إلى حذائه وقال: «ولكنها لم تحجز غرفة في الفندق.» بدا وكأنه مستاء مما فعله زملاؤه مثلي تمامًا.

قلت بمرارة: «رائع. لا أعتقد أنكما بحثتما عنها في أيٍّ من الفنادق الأخرى؟ تحسُّبًا لإقامتها في أي منها؟»

قال النحيل: «هذا ما جعلنا نتأخَّر. لم تحجز أيَّ غرفة في أيٍّ من الفنادق المحلية.»

زفرتُ وهززتُ رأسي. وقلت: «حسنًا. ربما فات الأوان الآن على فِعل ذلك، ولكن اذهبا للسؤال عنها في المطارات وشركات الخطوط الجوية. فلنرَ إن كانت مانويلا قد عادت إلى إسبانيا. وإن لم تكن قد فعلت، فأبلغ جميعَ نقاط الخروج عنها.» صرفتُهما والتفتُّ لأواجه بن ويلسون.

وقلت: «بدأت أشك فيما إذا كنت مُحقًّا بشأن التزام فاريل بروتينه المعتاد.»

بدأ بن يمضغ علكةَ النيكوتين بعصَبية، وبدا الاشمئزاز على وجهه الشبيه بكلاب البولدوج. وقال وهو يومئ ناحية الباب: «سنكتشف ذلك قريبًا. لقد عادا. ويبدو أنهما خاليا الوفاض.»

التفتُّ لأنظر في نفس اتجاه نظرته. كان المحققان اللذان أرسلتهما ليحضرا لي جاك فاريل قد عادا. وكانت بينهما مساحة خالية كان من المفترض أن يشغلها فاريل. قال

المحقق الأصهب بمجرد أن أصبح قريبًا بما يكفي لأن يتحدث معي من دون صياح: «إنه لم يظهر، أيها القائد.»

قلت بحدة: «لست قائدك. الأمر الذي يسعدني كثيرًا، صراحةً. هل تقولان إن جاك فاريل لم يذهب إلى نادي سميثسون اليوم؟»

أومأ الاثنان برأسيهما.

فسألتهما: «وماذا عن داني تشو وفانسي رايلي؟ هل ظهرا؟»

وجَّه الشاب ذو الشعر الأحمر نظرةً سريعة إلى شريكه. نظرة كانت تقول: «اللعنة.» تململ المحققان أثناء وقوفهما.

فزفرت قائلًا: «لا عليكما. حسنًا، إليكما ما أريد منكما فِعله. اتصلا بمحامي فاريل وحدِّدا معه موعدًا للقائي هنا. أخبِراه أننا بحاجةٍ إلى أخذ شهادة رسمية من فاريل عن الحريق. وأخبِراه بأننا بحاجة إلى الحصول على هذه الشهادة في أقرب وقت ممكن.»

انصرفا وتركاني وحدي مع بن. قلت: «ماذا تعتقد؟»

بصق بن علكته في سلة المهملات وهزَّ كتفيه. وقال: «كانت كاتي ابنته الوحيدة. ربما نال الحزن منه.»

لم يقنعني هذا المبرِّر. وقلَّت قناعتي به أكثر عندما عاد الشاب البدين الذي أرسلته للبحث عن مانويلا في وقتٍ لاحق.

وقال: «لقد كانت على متن أول رحلة طيران من مطار هيثرو متجهةً إلى مَلَقا. هبطت الطائرة هناك منذ ثلاث ساعات، ولكنها لم تذهب إلى منزل عائلتها. لقد بحثَتْ عنها الشرطة الإسبانية هناك. تعيش والدتها ووالدها في منزلٍ يبعُد مسافة ساعة واحدة عن المطار. وقالا إنهما لا يعرفان أنها عادت إلى إسبانيا. كما أنهما لا يعرفان أين قد تكون.»

كان لفاريل علاقات في إسبانيا، مثل أغلب رجال العصابات الإنجليز. ربما كانت تلك هي الطريقة التي حصل بها على مانويلا من الأساس. ولكن هذا لا يمنع أنها قادرة على الاختفاء بسهولة هناك. فثمَّة الكثير من السياح، والكثير من العمال المؤقتين. أذكر أن شرطيًّا إسبانيًّا أخبرني ذات مرة أن هناك بعض الأماكن في بلده لم يعُد يسكنها أهل البلد. ربما كان مكان مثل هذا هو المكان المثالي لإخفاء شابة إسبانية تريد أن تخفيها عن الأنظار لبعض الوقت. أيًّا كان السبب.

نظرت إلى بن. وقلت متجهِّم الوجه: «لا يزال فاريل يملك ما يكفي من سرعة البديهة لإبعاد المربِّية عن الصورة. ألا تزال تعتقد أنه حزين لدرجة أن يفقد رجاحة تفكيره؟»

الفصل الرابع

ردَّ علينا محامي فاريل قبل انقضاء فترةٍ ما بعد الظهر بقليل. كان يُدعى ماكس كارتر، وأزعجني صوته كثيرًا، بغض النظر عما كان يقول. كان أسلوب حديث الأمير تشارلز الرسمي يبدو عاميًّا مقارنةً بأسلوبه. كان ملخَّص حديثه أن جاك فاريل على استعداد للقائنا في صباح اليوم التالي في مكتب المحامي.

قلت له: «أُفضل أن يأتي السيد فاريل إلى مركز الشرطة. جدولي مزدحم صباح الغد، وأريد أن أحصل على شهادة رسمية منه.»

قال بطريقة متغطرسة جعلتني أرغب في صفعه: «جميعنا مشغولون. ولكن لم يفقد أيٌّ منا طفلته خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. يستحق السيد فاريل منا التعاطف والمراعاة. ومركز الشرطة ليس بالمكان الذي يمكنه منحُ أيٍّ منهما، يا رئيس مكتب التحقيقات. هل يناسبك لقاؤنا في مكتبي في العاشرة والنصف؟»

لم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أوافق. وضعتُ سماعة الهاتف والتفتُّ نحو بن وأخبرته عن اللقاء. قلت: «يقع مكتب كارتر في أحد أبراج كناري وارف. أريد ضابطَين عند كل مخرج من مخارج الطابق الأرضي للبرج وسيارتين في موقف السيارات تحت الأرض. حاول الحصول على مخططات المبنى من مجلس البلدية، تحسُّبًا للأسوأ. يجب ألا يخرج فاريل من هذا البرج دون مراقبة.»

أومأ بن. وقال: «أمرك، أيها الرئيس. هل تريد مني أن أرتِّب لمراقبة هاتف المحامي؟»

«سيَفترض أننا فعلنا بالفعل. كما أنه لا فائدة من ذلك. فكل خطوة نخطوها ترينا مدى دهاء فاريل. حتى بعد تلك الحادثة التي رجَّت عالمه بالكامل، لا تزال دفاعاته قائمة. ولكن ربما يجدُر بك أن تتواصل مع بعض مصادرنا المعتادة لترى إن كان بإمكاننا أن نتعقب داني وفانسي.» قطعت حديثي فجأةً عندما وقفَتِ امرأة طويلة القامة بجوار مكتبي.

كان شعرها الأسود الكثيف تتخلله خُصلة فضية مميزة تمتد من منتصف مَفرِق شعرها حتى إحدى أذنيها. ابتسمتُ عندما رأيتها.

وقلت: «أنت بعيدةٌ عن منطقتك، أليس كذلك؟»

فردَّت عليَّ قائلة: «يمكنني قول المِثل عنك.» ثم أشارت نحو مقعد بن الذي وقف وابتسامة ملتوية ترتسم على شفتيه. دارت حول المكتب وجلست مسندةً قدمَها على سلة المهمَلات مُطلِقةً تنهيدةً تدل على الرضا.

لطالما أُعجبتُ بالنساء اللاتي يمكنهن دعم أنفسهن. وكانت الطبيبة ستيلا مارينو تملك شجاعةً تكفي لدعم نوعها كاملًا. كانت تعمل طوال السنوات الخمس الماضية ضمن فريقي في تشريح الجثث. وعلى النقيض من الجثث التي شوَّهها فاريل، كانت الجثث التي عمِلَت عليها ستيلا ميتة مسبقًا.

قالت ستيلا: «أنت تعلم أني لست طبيبة شرعية خاصة. ولستم الشرطيين الوحيدين الذين يحتاجون إلى المساعدة من الأفضل.»

«هل أتيتِ من أجل كاتي فاريل؟» كنت أعرف الإجابة عن هذا السؤال، ولكن يجدُر بالمرء أن يحرِّك الأمور، حتى وإن كان يعمل مع الطرف الآخر بشكل وثيق مثلما هو الحال بيني وبين ستيلا.

أومأَت ستيلا أنْ نَعَم. وقالت: «رغم أني لم أفعل ذلك إلا بسبب اهتمامك بوالدها، على ما أظن. لم يكن ثمة أي دلالة في جثتها على حدوث أي شيء آخر سوى ما افترضتموه حينئذٍ. كانت نائمة في سريرها. وقتَلها الدخان والأبخرة. كانت جثتها مليئة بالحروق البليغة، ولكنها حدثت بعد وفاتها. أعتقد أن هذه الحقيقة قد تريح والديها قليلًا.» حاولَت ألا تُظهر مَللها، ولكنها فشِلت. تُصاب ستيلا المسكينة بالملل سريعًا عندما لا تجد أيَّ مفاجآت في الجثة التي تفحصها.

تدخَّل بن قائلًا: «هل تقصدين أن الشخص الذي فعل ذلك لم يرغب في أن تعاني؟»

أزاحت ستيلا شَعرها عن وجهها كعادتها. وقالت: «دائمًا ما تبحث عن الدافع يا بن. أنا لا أرى سوى ما تخبرني به الجثة.» ثم تثاءبت ونهضت. وقالت: «ستحصل على تقريري الرسمي في غضون يوم أو اثنين.»

قلت وقد بدأت السيرَ بجوارها بالفعل: «دعيني أوصلك إلى الخارج.» وعندما ابتعدنا عن نطاق سَمْع بن الخارق، تحدثتُ. وقلت: «أعلم أنه قد مرت مدة طويلة، ولكن يبدو أنه سيتوفَّر لي بعضٌ من وقت الفراغ الليلة. هل يمكنني أن أُحضِر بعض الطعام وآتي إلى منزلك؟»

عضَّت ستيلا على شفتها. وقالت: «فكرة جيدة يا آندي. ولكن ثمة عقبة وحيدة. سأسافر إلى الولايات المتحدة نهاية هذا الأسبوع ولدي مليون شيء يجب أن أفعله قبل أن أسافر.»

«الولايات المتحدة؟» حاولتُ جاهدًا ألا يخرج السؤال بصوتٍ عالٍ، ولكني لم أُفلِح. حسنًا، ليس بيني وبين ستيلا ما يمكنك أن تطلق عليه علاقةً غرامية. كما أن لقاءنا ثلاث أو أربع مرات شهريًّا لتناول العشاء معًا وقضاء وقتٍ ممتع في الفراش لا يُعَد علاقةً غرامية أيضًا. «هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن سفرك إلى الولايات المتحدة.»

كنا قد خرجنا إلى الرَّدهة في تلك اللحظة، وكنا نمشي جنبًا إلى جنب في الرواق الضيق. لم تبطئ ستيلا من سرعة سيرها، بل استمرت في السير في اتجاه المصاعد بخطواتها الواسعة. قالت: «لقد سنحت لي فرصة قضاء شهر كامل في مزرعة الجثث. أنت تعرف مزرعة الجثث، حيث يُجرون ...»

قاطعتها قائلًا: «أعرف ما يفعلونه هناك. من الصعب مقاومة هذا الإغراء. شهر كامل من مراقبة الجثث وهي تتعفَّن. حُلم حياة أي طبيب شرعي.» هززت رأسي وتركت فمي يلتوي متحولًا إلى ابتسامة ساخرة. وقلت: «وسيتغلب هذا بالطبع على قضاء الوقت معي وتناول عشاء صيني.»

ضغطت ستيلا زر طلب المصعد واستدارت لتواجهني. وقالت: «استمع لما تقول. لقد سمعت أطفالًا في الخامسة من أعمارهم يتحدثون بنضج أكثرَ منك.» ضحكَتْ ستيلا وانحنت نحو الأمام لتطبع قُبلة رقيقة على وجنتي. شممت منها رائحة جيل اللافندر الذي تفرك به وجهها ويديها مثلما تفعل دائمًا في نهاية يوم عملها. ثم قالت: «أيها السخيف.» ربَّتت على ذراعي عندما انفتح باب المصعد. وقالت: «سأراك عندما أعود. حاول ألا تعثر على جثث مثيرة للاهتمام حتى أعود.»

تظاهرتُ بالانزعاج مما قالت. وقلت: «سأرى ما يمكنني فعله. فقط لكي أغيظك.»

الفصل الخامس

جُهزت مراقبة المبنى قبل ساعة كاملة من موعد الاجتماع الذي سيُعقد في مكتب ماكس كارتر. على الرغم من اعتيادنا فِعلَ مثل هذه الأمور، أعتقد أننا كنا متوترين إلى حدٍّ ما في ذلك الصباح. لقد تغيَّرت قواعد اللعبة بطريقةٍ ما، وبدا الأمر وكأننا لم نكن نعرف القواعد الجديدة بعد.

رأينا فاريل بمجرد أن أوصله فانسي رايلي أمام المبنى بعد العاشرة بقليل. كان التغيُّر الواضح في مظهره لافتًا للنظر. سار المسافة القصيرة حتى مدخل المبنى الرئيسي وكأنه رجل مُسِن، بكتفين مُحنيتين وخطوات مترددة. كان مُطأطئَ الرأس مكسورَ العينين. ولكي أكون أمينًا، كنت سأمر بجواره في الشارع دون أن أتعرَّفه لولا أني كنت أترقَّب وصوله.

قال بن: «إنه في حال سيئة للغاية.»

«لا عجب في ذلك.»

سألني: «هل حالته تلك حقيقية؟»

قلت: «أخبِرني أنت، فأنت مَن لديه أطفال. كيف كنت ستشعر لو كان أوين أو بيثان هو مَن مات؟»

فكَّر بن لحظةً. ثم قال أخيرًا وهو يربِّت على شعره الذهبي الذي يغطي رأسه المستدير: «الغضب. كنت سأشعر بالغضب. كنت سأستعِر غضبًا حتى أضع يدي على الشخص الذي قتل طفلي. وكنت سأدخل إلى حيث يوجد عاصفًا بقبضتين جاهزتين للفتك به. ولكن فاريل يبدو مكسورًا. يبدو وكأنه قد استسلم. هذا يُثبت أنه لا يمكنك أن تخمِّن أبدًا ما قد يكسر ظهر المرء. قبل رؤيتي له، لم أكن لأصدق أن يتلقى جاك فاريل الضربةَ بمثل هذا الخُنوع.»

وضع بن، كعهدِه دائمًا، إصبعه على الشيء الذي يزعجني تمامًا. إن جاك فاريل رجلُ أفعال. لقد شهدنا ذلك بأنفسنا المرة تلو الأخرى. إذا ما حاول أحد أن يسبب ضررًا كبيرًا

لجزء من إمبراطوريته، كان فاريل يهبُّ إلى التصرف على الفور. كان يعقد اجتماعًا صباحيًّا كالمعتاد. ثم كان يقضي داني تشو وفانسي رايلي بقيةَ اليوم في التنقُّل من مكان إلى آخر وكأن نارًا تطاردهما. وفي خلال بضعة أيام، يعود فاريل ليعتليَ القمة مجددًا، وعادةً ما يكون أقوى من السابق. ومَن سوَّلت له نفسه تجربة مواجهته لا يعيد الكرَّة أبدًا.

لا شك في أن أحدًا لم يفكر في فعلِ أمرٍ شخصي كهذا من قبل. ولكننا لم نكن قادرَين على تقبُّل فكرة أن يتلقى فاريل الضربةَ بمثل هذا الخنوع.

ولكن عندما دخلنا مكتبَ ماكس كارتر، رأينا أن هذه هي الحال بالفعل. رفع فاريل رأسه بالكاد لينظر نحونا عندما دخلنا المكتب. كان يجلس هامدًا على مقعدٍ وثير، وشعره دُهني خفيف، وبدلته مجعَّدة وعيناه جامدتان كحصوتين. كان من الصعب مقارنة تلك القشرة الفارغة بالرجل الذي يدير أقوى إمبراطورية إجرامية في البلاد.

عندما عرَّفناه بنا، متظاهرَين بأننا من قوة شرطة هامبشر، لم يبدُ على فاريل أنه تعرف عليَّ من ليلة الحريق. ألقى كارتر على آذاننا الكثير من عبارات الترحيب الجوفاء بينما كان يُجلسنا جميعًا حول طاولة قهوة قصيرة، ولكنه لم يكن ليتمكن من إرجاء أسئلتنا إلى الأبد.

راجعت مع فاريل أحداثَ الليلة التي حدث فيها الحريق. فقال بصوتٍ كئيب وواهن: «لم أكن في المنزل عندما أخلدت كاتي إلى فراشها. كنت قد تأخَّرت في العودة من اجتماع في لندن. ولكني ذهبت إلى غرفتها للاطمئنان عليها فور عودتي.»

سأله بن: «كم كانت الساعة؟»

قال فاريل: «التاسعة والنصف تقريبًا. ثم ذهبت إليها لأطبع على وجهها قُبلة قبل أن أخلد إلى النوم. مثلما أفعل دائمًا.»

وأمور من هذا القبيل. كان قد ضبط المنبه. أو كان واثقًا بنسبة تسع وتسعين بالمائة من أنه ضبطه كما يفعل دائمًا. كان قد سجَّل مباراة كرة قدم في وقت سابق من تلك الأمسية، فذهب إلى غرفة نومه في حدود العاشرة والنصف لمشاهدتها هناك. انضمَّت إليه مارتينا هناك في وقتٍ ما خلال الشوط الثاني، قبل هدف فريق نادي أرسنال. أطفآ الأنوار بعد منتصف الليل مباشرةً وناما.

أيقظت رائحة الدخان مارتينا أولًا. فهَزَّته حتى استيقظ وقفز من الفراش. قال بصوتٍ مرهَق وحزين: «لا، لم أنظر إلى الساعة. عدَوتُ إلى خارج غرفة النوم، ورأيت أن ثمة دخانًا في الرَّدهة.»

أوقفته عند هذه النقطة، وأخرج بن مخطَّط المنزل. كان المنزل مصمَّمًا على شكل ثلاثة أضلاع من مربع. كان الجزء الأوسط منه يضم غُرَف جلوس في حجم قاعات رقص الفنادق. كان الجانب الأيمن من المنزل يضم مكتب فاريل، وغرفة جلوس مارتينا الخاصة، وغرفة نومهما. وكان الجانب الأيسر يضم غرفة لعب كاتي، وغرفة نومها، وغرفتَي مانويلا. قلت: «أرني المكان حيث رأيت الدخان.»

أشار إلى رواقٍ يبدأ من غرفته وينتهي عند غرف المعيشة. بدا خاملًا ومملولًا، كما لو أن ذهنه في مكانٍ آخر بعيد. «عدوتُ نحو الدخان. عندما وصلت إلى منتصف الرَّدهة الرئيسية، كان الدخان كثيفًا لدرجة أني لم أستطِع التنفس. لم أستطِع أن أرى أيَّ ألسنة لهب؛ فقد كان الدخان كثيفًا للغاية. ولكني كنت أشعر بحرارة النار.»

عاد فاريل بصعوبة إلى غرفة نومه وهو يسعل واضعًا يده على أنفه وفمه. كانت مارتينا قد اتصلت بالمطافئ بالفعل. غادرا المبنى معًا عبر باب الحديقة عند الطرف البعيد من الرَّدهة. عدا فاريل في اتجاه الجناح الآخر حيث تنام كاتي. ولكنه أدرك قبل أن يصل بمسافة طويلة أن الوقت قد فات. كانت ألسنة اللهب تُطِل من نافذة غرفة نومها. كان راكعًا على ركبتيه أمام نافذة غرفتها والدموع تنهمر على وجهه عندما عثر عليه رجال الإطفاء.

كما عثر رجال الإطفاء على مانويلا فاقدةَ الوعي على الأرض بجوار المقعد الذي استخدمته في تحطيم زجاج نافذة غرفة نومها. أتت النار على غرفتها كحال بقية الغرف في هذا الجناح من المنزل. كانت محظوظة أنْ بقِيت على قيد الحياة، طبقًا لما قاله رئيس المطافئ.

قلت مخاطبًا فاريل: «هل هذا ما تعتقده أنت أيضًا؟»

ظهرت في عينيه للمرة الأولى في ذلك الصباح لمعتُها القديمة. وسألني: «ماذا تعني؟»

«هل تعتقد أنها نجت من الموت بشِقِّ الأنفس؟ أم إنها لا تزال على قيد الحياة لأن هذا ما خطَّطت له؟»

ضرب معصمه بيده كما لو كان يضرب ذبابة. وقال: «لا تكن غبيًّا. كانت مانويلا تحب كاتي. كانتا مثل أُختين.»

قلت: «ولكنهما لم تكونا أختين. وحتى الشقيقات لهن سِعر. من السهل دائمًا تنفيذُ فعلٍ كهذا إذا ما تم من الداخل. هل من الممكن أن يكون شخصٌ ما قد أقنع مانويلا بفعل ذلك؟»

رأيت فاريل يدير الفكرة في رأسه لحظةً. ثم هزَّ رأسه نفيًا. وقال: «مستحيل.»

صدَّقته. وأعتقد أني كنت أعرف سببَ ثقته تلك. فلم يكن الهدف من إخراجها من البلاد هو حمايتها فحسب. بل حمايته هو أيضًا. كان يعلم أن مانويلا لم تقتل ابنته لأنه كان يعلم أنها تحبه. ولكني لم أكن أعلم إذا ما كان يبادلها الحب أم لا. ولكني أُراهن أنه كان يستغل مشاعر مانويلا نحوه بكل الطرق.

وأراهن أن مارتينا لا تعرف شيئًا عن العلاقة بينهما.

الفصل السادس

بالطبع طردَنا ماكس كارتر من مكتبه قبل مغادرة فاريل. ولم أكن لأندهش إذا ما أرسل خلفنا مَن يتتبَّعنا سرًّا ليتأكد من مغادرتنا المبنى. عبرت وبن الشارعَ واشترينا كوبين من القهوة المُبالَغ في سعرها، وتحمل اسمًا أطول من أسماء أغلب الناس الذين أعرفهم. تأكَّد بن من أن جميع فِرق المراقبة في أماكنها. ووضعنا سماعات الأذن حتى نتمكن من سماعِ ما تقوله الفِرق عبر اللاسلكي، ثم تبادلنا نظراتٍ واجمة.

قلت: «لمَ أشعر بأننا نسير في اتجاهٍ لن يؤدي بنا إلى أي مكان؟»

«لأن هذا ما يريدك فاريل أن تشعر به.»

أخذت رشفة من قهوتي. وكانت محروقة. جعلني ذلك أتساءل عن سبب شهرة هذه المقاهي ذات الأسعار الباهظة من الأساس. «ربما. وربما لا. لقد وصلني تقرير الطب الشرعي الأوَّلي هذا الصباح. ليس لديهم أيُّ دليل يقودهم لأي شيء. يمكن الحصول على الوقود من أيٍّ من محطات الوقود الموزَّعة في أنحاء المدينة التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف محطة. دخل الجناة عبر باب الحديقة الواقع عند الطرف البعيد من الرَّدهة متخطِّين مستشعِرَ جهاز الإنذار المثبَّت في الباب. أمرٌ ليس بالسهل، ولكنه ليس علم صواريخ أيضًا. لم يتركوا أيَّ بصمات، والسلك الذي استخدموه لتخطي جهاز الإنذار يمكن شراؤه من أي مكان. وأي أدلة أخرى دمَّرتها النار.»

قال بن: «يا لها من لعينة تلك النار!»

قبل أن أوافق على ما قال، سمِعت أصوات تطقطق في أذني. قلت مُنصِتًا لما يُقال: «إنه يتحرك.»

سمِعت عبر اللاسلكي: «إنه في المصعد رقم ستة. كيرستي معه. إنه يهبط إلى أسفل.»

ثم فترة صمت، ثم عادت الأصوات تقول: «لم يخرج من المصعد عند الطابق الأرضي. لا أعرف إن كان لا يزال في المصعد أم لا.»

سمعت صوت المحقِّقة كيرستي بلايث بعد ذلك. قالت: «نحن في الطابق الأسفل من مرأب السيارات. الهدف يتجه يسارًا.» طقطق تشويش في أذني. كنت قد خرجت من السيارة حينها، أتجرَّع القهوة بالكامل وأتجه نحو الباب. كانت لدينا سيارتان مُتخفِّيتان في المرأب، واحدة في كل طابق منه. سمعت كيرستي تقول: «اللعنة. ثمة ثلاث شاحنات بيضاء متطابقة مركونة جنبًا إلى جنب. سار الهدف خلفها. لا أعرف أي شاحنة ركِب.»

كنا نعدو حينها، أنا وبن. لم تكن لدينا خُطة للتعامل سوى أننا لا يمكن أن نظل جالسين في مكاننا ولا نفعل شيئًا. اقتربت منَّا سيارة أجرة سوداء فأوقفتها، وأخرجت بطاقة تفويضي من جيبي ولوَّحت بها في وجه السائق بينما كنا نركب، وصِحت قائلًا: «انعطِف عند الناصية حتى نرى مخرج مرأب ذلك المبنى هناك.»

غمغم السائق بعبارة فظَّة، ثم فعل ما أمرته به. وصلنا إلى المكان الذي أشرت إليه بينما تخرج الشاحنة البيضاء الأولى من قمة منحدر المرأب. انحرفت الشاحنة الأولى يسارًا، وانحرفت الشاحنتان الأُخريان يمينًا. كانت سيارتانا المتخفيتان في إثر الشاحنات، واحدة في كلٍّ من الاتجاهين. أخبرت سائق السيارة الأجرة أن ينطلق نحو اليمين.

تحدَّث بن في هاتفه المحمول مخاطبًا سائق السيارة التي تتتبَّع الشاحنتين وأخبره أن يواصل تتبُّع الشاحنة التي في المقدمة، وأن يترك الشاحنة الثانية لنا. ولكني كنت أعلم أننا فشلنا. لم يكن الأمر يشبه بأي حال من الأحوال ما يُعرَض على شاشات التلفاز حيث يجعلون مراقبة سيارة من دون افتضاح أمرِ المراقب أمرًا شديد السهولة. لا يمكنك تتبُّع مركبة من دون أن يدرك سائقها ذلك إلا لو كنت تستخدم سيارتين أو أكثر لأداء المهمة. قد يناسب ذلك الطُّرق الرئيسية في المدينة أو الطُّرق السريعة. ولكن بمجرد أن تصل عملية المراقبة إلى الشوارع الجانبية أو الطرق الريفية، فقد انكشفتَ لا محالة. هدفك يعلم أنك خلفه، فإما أن يقودك في الاتجاه الخطأ أو يحاول الإفلات من مراقبتك.

قادتنا الشاحنة التي نتتبَّعها شَمالًا ملتزمة بالطرق الرئيسية طوال الوقت. انتهى بنا المطاف بمتابعتها حتى الطريق إم ١١ نحو كامبريدج. وبعد حوالي ساعة كاملة من السير بلا هدف، انحرفت الشاحنة عن الطريق وسارت في طُرق ريفية، حتى وصلت أخيرًا إلى مرأب حانة ريفية. دخلت الشاحنة المرأب بينما وقفنا نحن بعيدًا في محاولةٍ منا للتظاهر بأنه لا يوجد ما يريب في وقوف إحدى سيارات تاكسي لندن في إحدى قرى إسِكس.

كان سائق الشاحنة يعلم بوجودنا، بلا أدنى شك. خرج من الشاحنة وسار حتى مؤخرتها. وفتح باب صندوقها ثم التفت نحونا ولوَّح لنا. صاح بن: «يا له من متعجرِف.»

قلت: «اذهب، رغم ذلك، وافحص الشاحنة.»

رمقني بن بنظرةٍ يتطاير منها الشرر، ولكنه فَعل ما أمرته به. سار بن على الطريق ثم انحرف داخلًا مرأب السيارات، وألقى نظرةً لا مبالية على صندوق الشاحنة المفتوح، ثم سار في اتجاه الحانة. ودخل الحانة. بعد لحظات، رنَّ هاتفي. قال بن: «لا يوجد أي شيء هنا. سأعود بمجرد أن أنتهي من مشروبي.»

لم يُبلِ أيٌّ من سيارتَي المراقبة الأُخرَيين أفضل منا. سارت الشاحنة التي انحرفت يسارًا حتى وصلت إلى وسط مدينة لندن، ثم عادت أدراجها. ثم فقدوا أثرها عندما انطلق بها سائقها عبر إشارة مرور على طريق فارينجدون قبل أن تصبح الإشارة حمراء مباشرةً. كادت حافلة أن تطيح بجانب الشاحنة، ولكن السائق نجح في المرور.

ولم يتمكَّن رجالنا من ذلك.

انتهى المطاف بالشاحنة الثالثة بالتوجه إلى نفق دارتفورد ثم إلى الطريق إم ٢٥. وفقدوا أثرها بسبب أعمال طريقٍ عندما قطعت شاحنةُ نقل الطريقَ أمام سيارتنا قبل أن تندمج حارات الطريق مباشرةً. وعندما تمكَّن سائق سيارتنا من العبور، لم يكن ثمة سبيل للعثور على الشاحنة البيضاء مجددًا.

في نهاية الاجتماع في مكتب ماكس كارتر، كدتُ أقتنع بأن حزن فاريل حقيقي. ولكن تلك المناورة التي قامت بها الشاحنات كانت من شِيَم جاك فاريل القديم، ولم أعُد أعرف ما يجدر بي أن أعتقد.

الفصل السابع

على مدارِ الأيام القليلة التالية، زاد البحث عن جاك فاريل اهتياجًا. بدا الأمر وكأنه قد تبخَّر. كنا نملك مصدرًا من داخل جماعته، ولكنه أقسم أنه لم يرَ أثرًا لزعيمهم. لم يكن رايلي وتشو أكثرَ وضوحًا وانشغالًا مما هما عليه الآن، أمَّا فاريل فكان يلعب دور الرجل الخفي.

وظهرت مارتينا أخيرًا لتخبرنا بأنها لا تعرف مكان زوجها. بدا أنها لا تعتقد أنه يوجد ما يَريب في اختفاء زوجها عن الخارطة بعد مقتل ابنتهما الوحيدة مباشرةً. وهذا إن دلَّ، فإنما يدل على أن الأثرياء يختلفون عن بقيتنا اختلافًا كبيرًا. كان كل ما يهمها هو أن تعرف متى ستتمكن من إقامة الجنازة.

لا شك في أننا كنا نواصل التحقيق في محاولةٍ منا للتعرُّف على الشخص الغامض الذي تجرَّأ على أن يقدِم على هذه الفَعلة الشنيعة بحق فاريل. ولكننا لم نتمكن من التوصل لشيء في هذا الشأن أيضًا. بدا أن لا أحد كان مستعدًّا لأن يُقِر بأنه كان جريئًا أو غبيًّا لدرجة أن يُنهي حياة كاتي فاريل. كان لغزًا شديد التعقيد.

كما أني كنت أفتقد ستيلا. حقيقي أني كنت في بعض الأحيان لا أراها خارج العمل من عطلة نهاية أسبوع إلى التي تليها. ولكن كان هذا يختلف عن إدراك أنها ليست حيث يمكنني الوصول إليها. عندما كنت أعود إلى بيتي كل ليلة ساخطًا ومرهَقًا، كنت أصب لنفسي كوبًا كبيرًا من البراندي وأتمنى لو كانت موجودة لتشاركني الشراب. ثم كنت أُلقي جسدي على الفراش وأنام كالموتى. بناءً على ذلك، ربما كان من الأفضل عدم وجودها.

بعد خمسة أيام من مقتل كاتي فاريل، حدث تغيُّر في مسار الأحداث. فقد اتصل بي أحد مُخبِريَّ. بدأ حديثه قائلًا: «لديَّ معلومات ستفيدك.» لا أسماء، ومن ثَم لا ملاحقات، هكذا تتم عمليات تبادل المعلومات تلك. «يجب أن نلتقي.»

بعد ساعتين، كنت أجلس في الصف الخلفي لدار سينما على أطراف المدينة أشاهد فيلمًا دنماركيًّا اسكتلنديًّا غريبًا عن متحوِّل جنسي مُشرَّد. يبدو لي هذا العمل في بعض الأحيان ضَربًا من الجنون. بعد أن ظللت أشاهد الفيلم نصف ساعة، جلس شخصٌ ما في المقعد المجاور لي.

وقال: «هل أنت بخير، يا سيد مارتن؟»

قلت مُتذمِّرًا: «كنت سأصبح أكثر سعادةً إذا ما كان ذوقك في الأفلام أفضل من هذا، يا شانكي.»

قال شانكي: «رأيت أننا سنكون آمنين هنا بعيدًا عن أعين أفراد عصابة جاك فاريل.»

استعدت فجأةً الرغبةَ في الحياة. وقلت: «هل لديك معلومات عن فاريل؟»

«ليس عن فاريل تحديدًا. من الأفضل أن تقول بخصوص فاريل.»

«هلا تدخل في صلب الموضوع، يا شانكي؟ لا أملك وقتًا يكفي لأن تقص عليَّ واحدة من قصصك الملتوية.»

قال: «هذه المعلومات تُساوي الكثير، يا سيد مارتن. أكثر من المعتاد.»

«شانكي، سأعطيك ما تريد. هيا أخبرني بما لديك.» لطالما كان التعامل مع المخبِرين لا يخلو من مراوغة. كان كلُّ ما يُهِمهم هو كَمَّ المديح أو المال الذي يمكنهم أخذه منك. كنت أكره التعامل معهم، ولكنهم جزءٌ لا يتجزأ من هذه اللعبة.

قال شانكي: «إنه يُسقط شَعره.»

«ماذا؟» راودتني للحظة صورةٌ غريبة عن جاك فاريل وكأنه كلب كثيف الشعر يتساقط شعره على المقاعد.

«إنه يُفرِغ أحماله. يبيع أعماله على أجزاء. جميعها مقابل أموال. انتقلت الفتيات بالفعل للعمل لدى عرَّاب ليتواني. وداني تشو يبيع كلَّ ما يملك لجمعِ ما يكفي من مالٍ يُمكِّنه من السيطرة على تجارة المخدرات، وفانسي رايلي يستهدف السيطرة على أعمال المراباة. وبقية أعماله معروضة للبيع. إنه يتحدث مع أشخاصٍ ظلت العداوة قائمة بينهم طوال سنوات. أشخاص حاولوا في الماضي أن يأخذوا منه أعماله، ولكنهم فشلوا. إنه يجلس مع أشخاصٍ وضيعين لم يكن في المعتاد ليُرى معهم ولو كان ميتًا.»

لم أصدِّق ما أسمع. «ما الذي ينوي فِعله؟»

تنحنح شانكي بصوتٍ متحشرج. وقال: «يُقال إن السبب هي ابنته. وإنه فقد عقله.»

«وهل هذا صحيح؟»

اعتدل شانكي في جِلسته. وقال: «جاك فاريل؟ لا أظن ذلك. إنه كما هو، لا يقبل أن يعبث معه أحد. ربما كان يبيع أعماله، ولكنه لا يتخلى عنها مجانًا. أعتقد أنه اكتفى. إنه يريد أن يصفي أعماله ويخرج إلى النور.»

سألته: «أين يقيم؟»

قال شانكي: «لا أعرف. لديه قارب في ساوثهامبتون حيث يعقد اجتماعاته. ولكنه لا يعيش فيه. سمِعت أن فانسي يأخذه في نهاية اليوم على متن قارب سريع ضخم وينطلقان نحو مصَبِّ النهر.»

طرحتُ بضعة أسئلة أخرى، ولكن كان شانكي قد أخبرني بكلِّ ما يعرف. أعطيته ظرفًا يحوي نقودًا، ووعدته بأن يحصل على مبلغ آخر إذا ما حصل على المزيد من المعلومات.

عندما عُدتُ إلى المكتب، راجعتُ وبن المعلومات التي حصلت عليها من شانكي. لم تبدُ منطقية من وجهة نظري. إذا كان حزينًا للغاية بسبب موت كاتي، فكيف تمكَّن من تولِّي جميع التعقيدات المتعلقة بتفكيكِ أعمالٍ بهذا الحجم؟ ولكن إذا لم يكن حزينًا بسبب موت كاتي، فلِمَ يتكبَّد عناء فِعل كل ذلك؟

قال بن: «ربما كان بحاجة إلى المال.»

«ألا تعتقد أن لديه ما يكفي من المال في حساباته المتعددة؟»

«وهل يمكنك أن تشعر بأن لديك ما يكفي من المال؟»

هززت كتفي في حيرة. وقلت: «لا أعرف. ولكني سأخبرك بما أتمنى أن أعرفه. أتمنى أن أعرف بحق الجحيم ما يخطِّط لفعله بكل هذا المال.»

الفصل الثامن

إذا ما أعددتُ قائمة بالأسباب المحتملة التي دفعت جاك فاريل لتحويل إمبراطوريته التجارية إلى أموال، لم أكن لأتوصل إلى السبب الحقيقي. ولكن بعد يومين، حصلت على الإجابة عن سؤالي بطريقة غريبة للغاية.

كنت جالسًا في مكتبي أعمل على المعلومات القليلة التي جمعناها عن صفقات بيع فاريل لأعماله بثَمَن بَخْس. كنت سعيدًا بالعودة إلى مكتبي، وسعيدًا بنَفض تراب ريف هامبشر عن حذائي. ثم دخل عليَّ بن حاملًا ورقة في يده.

وقال: «ماذا تعرف عن جون ستونهاوس؟»

قلت عاصرًا ذاكرتي: «وزير العمل في مجلس الوزراء في الستينيات، اختلس مبلغًا كبيرًا من المال لم يتمكَّن من سداده. ثم زيَّف انتحاره بأن ترك ملابسه على أحد شواطئ أمريكا ومعها رسالة انتحار. ثم ظهر برفقة عشيقته في أستراليا حيث قبضت عليه الشرطة؛ لأنهم اعتقدوا أنه اللورد لوكان. وسُلِّم إلى إنجلترا، وسُجن. ما الأمر؟ هل تحل أسئلة اختبار معلومات جريدة «ديلي ميل» مجددًا؟»

قال بن وهو يضع ورقة على مكتبي أمامي: «هاها. وصلَت للتو من أصدقائنا في هامبشر.»

قرأت الرسالة وأطلقت صافرة. وقلت: «وهل يصدِّقون ذلك؟»

«يقول خيَّاطه إنها بدلته، ويقول إسكافيه إنه صنع الحذاء من أجله، ويقول ماكس كارتر إنه يعرف التوقيع مع أنه لا يعرف فحوى الرسالة.»

سألته: «وهل تصدِّق أنت ذلك؟»

ألقى بن بجسده على المقعد المواجِه لي. وقال: «لا. إنك لا تجمع مبالغ طائلة من المال ثم تنتحر. هذا ليس منطقيًّا.»

«سيكون منطقيًّا إذا كنت ترغب في توفير المال لأرملتك. لا يمكن لمارتينا أن تدير أعمال فاريل. حتى وإن كان على علاقة بالمربِّية الإسبانية، لا بد أنه لا يزال يحب زوجته. إنهما لا يزالان ينامان في فراش واحد يا بن. الطريقة الوحيدة ليتأكد من أن أحوالها ستكون على خير ما يُرام هي أن يجمع الكثير من المال ثم يخبئه في مكانٍ ما لا يمكننا العثور عليه.»

حدَّق بن في وجهي وفغر فمه واتسعت عيناه. وقال: «لا أصدق ما أسمع. هل تعتقد أن جاك فاريل انتحر؟ هل تعتقد حقًّا أن مِلك الخداع قتل نفسه؟»

هززت رأسي نفيًا. وقلت: «على الإطلاق. ولكني أعرف كيف يمكن تبرير الأمر. دُمرت حياة الرجل بسبب موت ابنته. ولم يستطِع تحمُّل خسارتها. ولكنه يحب أمَّ ابنته كثيرًا، ما دفعه إلى التأكد من أنها ستكون في خيرِ حال من بعده. إنها حجة قوية، وإذا أردنا أن نهزمها، نحتاج إلى حقائق. ولكننا لا نملك أي شيء ندحض به هذه الحجة سوى حقيقة عدم وجود جثة. ماذا نعرف عن المد والجزر والتيارات البحرية في المنطقة التي انتحر فيها؟»

أدار بن عينيه في مَحجِرَيهما ونهض. وقال: «سأتولى الأمر.»

في غضون ساعة كنا نعرف ثلاثة أمور عن الجزء من القناة الإنجليزية الذي عُثر فيه على ملابس جاك فاريل. الأمر الأول أن قلةً فقط مَن اختاروا هذا الجزء من الساحل مكانًا للانتحار. الأمر الثاني أن الجثث تستغرق أسبوعًا أو عشرة أيام قبل أن تُجرَف إلى الشاطئ على مسافة خمسة عشر مِيلًا غرب النقطة التي انتحروا عندها. والأمر الثالث هو أن الحياة البحرية والطرق البحرية في المنطقة تعني أن الجثث تكون في حالٍ سيئة للغاية.

في حين أن الرواية الرسمية تقول إن جاك فاريل قد انتحر، اتفقنا فيما بيننا أنه يجدُر بنا أن ننتظر تكشُّف الأحداث.

تبيَّن أننا لم نكن لننتظر طويلًا. بعد ثمانية أيام، وصلَنا اتصال من شرطة دورست. جرفت الأمواج جثةً إلى شاطئ بالقرب من بول، ولديهم اعتقاد (أسلوب الحديث الذي لا يزال بعض رجال الشرطة يحبون استخدامه) أننا ربما نكون مهتمين بإلقاء نظرة عليها. سألناهم عن سبب اعتقادهم بذلك. قالوا إن السبب هو الوشوم.

لم ينتظر بن لحظةً واحدة. قُدنا سيارة الشرطة بأقصى سرعة مع تشغيل الأضواء الزرقاء الوامضة طوال الطريق حتى وصلنا. كنت أشعر بأني أفتقد ستيلا طوال الطريق. لا شك في أنها ربما لا تكون أكفأ طبيبة شرعية في العالم. ولكننا كنا نُكوِّن فريقًا جيدًا. كانت تفهم ما نحتاج إلى معرفته، وكانت سريعة، وكانت ممتازة بحق على منصَّة الشهود.

من الطبيعي أن يكون التعرُّف على جثةٍ قضت أسبوعين في البحر أمرًا صعبًا. كان الوجه والرأس محطَّمين بسبب اصطدامهما بالصخور. وقرضت سرطانات البحر بصمات الأصابع. كما أن شكل الجثث يتغيَّر في الماء. فهي تنتفخ وتتشوَّه. وهنا تطرأ الحاجة إلى طبيبٍ شرعي ليقرأ الدلالات على الجثة ويصف لك ما تنظر إليه. وليجمع عيناتٍ حتى نتمكن من فحص الحمض النووي.

أخبرنا رجال الشرطة من دورست أن رأس هذه الجثة ويَدَيها في حالٍ سيئة. ولكن بمجرد دخولنا المشرحة، أدركت أننا لن نحتاج إلى ستيلا لنتعرف على هذه الجثة تحديدًا. كانت ألوان الوشوم باهتة، والرسومات مشوَّهة بسبب تمدُّد الجلد وتمزُّقه. ولكن لم تكن العين لتخطئ هذه الوشوم.

كان التنين الذي رأيته ليلة الحريق لا يزال يغطي صدره، وذيله يلتف حول خَصره العاري لينتهي بطرفٍ مستَدَقٍّ على فخِذه اليُسرى. كانت ألوان النار التي ينفثُها من فمه قد خَبَت، ولكننا كنا لا نزال نراها بوضوح تملأ الجانب الأيمن من صدره وتصعد حتى كتفه. كانت إحدى ذراعيه مقطوعة من تحت المرفق، ولكن النصف العلوي من وشم الساموراي كان لا يزال ظاهرًا. وعلى الذراع الأخرى، بدت المرأة المرسومة في الوشم وكأنها قد زادت وزنًا وتحتاج إلى موعد مع مُصفِّف الشعر.

فكرت أننا لسنا بحاجة إلى إزعاج مارتينا. كنت قادرًا على التعرف على جاك فاريل على الفور. ولكن بدا لي أني سأُخطئ مجددًا.

فطلبت من الطبيب الشرعي أن يأخذ عينات من أجل اختبارات الحمض النووي. فقد أردت مقارنته بحمض كاتي النووي، والحمض النووي المأخوذ من الملابس والرسالة المتروكة على الشاطئ.

كما يُقال، إذا كنت ستصافح شخصًا مخادعًا، فالأفضل أن تَعُد أصابعك بعد مصافحته.

الفصل التاسع

لم يُجمِع الجميع على أني تصرفت تصرفًا صحيحًا فيما يتعلق بالحمض النووي. بمجرد عبوري باب مكتبي في صباح اليوم التالي بدأ رئيسي ينتقدني. قال بوجهٍ مُحمَرٍّ مثل مؤخرة قِرَدة البابون: «ما الهدف؟ إننا نعلم أنه فاريل. نفس العمر، نفس الطول، نفس البنية. وكذلك الوشوم، بالله عليك. إن كانت ثمة قضية سهلة، فهذه هي. آندي، أنت مَن حدد هُويته. ولكن هذا ليس كافيًا بالنسبة لك، أليس كذلك؟ لا، الآن تريد إجراء اختبارات حمض نووي. هل لديك فكرة عن تكلفة محاولة استخراج حمض نووي من جثة محروقة بالكامل؟»

هززت كتفيَّ. وقلت: «إنه جاك فاريل. الحذر أفضل من الأسف.»

مرَّر يده عبر شعره الخفيف. وقال: «أخبَروني أنهم مضطرون إلى استخدام أسلوبٍ يُدعى تعدُّد أشكال النوكليوتيدات المفرَدة. إنه يكلف الكثير، كما أنه يفشل في أغلب الأحيان. وفي هذه القضية، لن يُثبت أي شيء. ماذا لو لم يتطابق الحمضان النوويَّان؟ لن يعني ذلك أنها ليست جثةَ جاك فاريل. كلُّ ما سيعنيه ذلك هو أن مارتينا فاريل كانت تعبث خارج إطار الزواج.» ثم رفع يديه في الهواء. وقال: «إنه لن يُثبت ذلك حتى. فعلى حسب عِلمنا، ربما استخدموا علاج خصوبة. الحمض النووي الوحيد الذي يستحق المقارنة معه هو الحمض النووي المأخوذ من الملابس على الشاطئ. والرسالة.»

كان كلامه منطقيًّا، ولكني لم أكن لأقر بذلك. «ماذا تريد إذن؟ هل تريد أن أُلغي الاختبارات؟»

«لا، لقد فعلتُ ذلك بالفعل يا آندي.» ثم صوَّب إصبعه نحوي. وقال: «يجب أن تتوقَّف عن التصرف في الأمور كما لو كانت ملكيتك الخاصة. لطالما تحمَّلت المسئولية بدلًا منك عندما تسوء الأمور. ولا يجدر بك أن تتصرف دون الرجوع إليَّ.» ثم زفر. وقال: «أعلم أن الوضع مُمِل، ولكننا مُلزَمين بميزانية يا آندي.»

قلت: «معك كل الحق.» بدت الدهشة على وجهه، ثم تبِعها السرور. ولكني لم أتمكن من تمالك نفسي. كان يجب عليَّ أن أصدمه. «الوضع ممل.» يا إلهي، كم أفتقد ستيلا. كانت ستُجري الاختبارات ثم تهتم بأمر الميزانية فيما بعد.

ظل الناس يتهافتون لتهنِئتنا طوال اليوم. كما لو أننا المسئولون عن انتهاء مشكلة جاك فاريل. كما لو أن ما حدث نتيجةُ عملنا. بدا أن أيًّا منهم لم يرغب في التفكير في حقيقة أنه حتى وإن كان فاريل قد مات، فلا تزال أعماله قائمة وفي أحسن حال. قائمة وفي أحسن حال ويديرها أشخاص بنصف ذكائه ولا يملكون سوى جزءٍ يسيرٍ من خبرته في التعامل مع المخاطر والصعوبات.

بالنسبة لي، كان هذا يعني المتاعب. نجحت إمبراطورية فاريل لأن إمبراطورها كان يديرها بيدٍ من حديد. قرأت ذات مرة أن نيرون قال ما معناه: «دعْهم يكرهوني ما داموا يخشونني» وكانت هذه طريقة جاك فاريل في إدارة أعماله. لم أعتقد أن داني تشو أو فانسي رايلي قادران على مُجاراة زعيمهما الراحل فيما يتعلَّق بزرع الخوف في نفوس المنافسين. ستنهار جميع الأعمال بسرعة كبيرة. وسنواجه نحن فوضى عارمة.

فهِم بن ذلك. وقال: «سيتقاتلون على الغنائم مثلما تتقاتل الكلاب على كيس من العظام. وستكون العواقب وخيمة.»

سقطت الضحية الأولى بعد يومين من العثور على جثة فاريل. جاءت عائلة جوي سكاردينو إلى اسكتلندا في نهاية القرن التاسع عشر وعاشت على تجارة السمك والبطاطس المقلية والمثلَّجات. ولكن كان جوي قد شاهد الكثير من الأفلام عن حياة العصابات، فحضر إلى لندن بحثًا عن عملٍ أكثرَ إثارة من الوجبات السريعة. كان يحب أن يطلِق عليه الناس اسم جوي سكار، ولكن قلة فقط هم مَن تملَّقوه بهذا الاسم. ولم أكن من بينهم. لم أكن ممن يُكرمون حثالة البشر عبر استخدام ألقابهم.

على أي حال، كان جوي يملك ما يكفي من المهارة والجاذبية التي تؤهله لأن يكون رجل عصابات، ولكنه لم ينجح قط في أن يكون في المكان المناسب في الوقت المناسب. كان يتُوق إلى أن يلعب وفقًا لقواعد الكبار.

وكجزء من محاولته فِعل ذلك، ظل مرافقًا لفاريل مدة طويلة. ورأى كم يجني فاريل من المال من تهريب البشر وتزويد المهاجرين غير الشرعيين بالهويَّات الزائفة. كان سكاردينو يرغب في أن يقتطع جزءًا من العمل لنفسه. ولكن كلما حاول فِعل ذلك، كان فاريل يجد طريقة لعرقلته.

طبقًا لِبن، الذي كان لديه مخبِر بين صغار أعضاء جماعة فاريل، دفع سكاردينو مبلغًا كبيرًا من المال إلى فاريل بعد الحريق. قيل إن المال كان دُفعة لشراء التجارة التي فشل في سرقتها سابقًا. كانت المشكلة الوحيدة تكمُن في أن سكاردينو كان يرغب في الحصول على عائد سريع من استثماراته. فعلى النقيض من فاريل، لم يكن يفهم أن مبدأ الحصول على مبلغ معقول من المال كل أسبوع على مدى سنوات أحصفُ من محاولة الحصول على مبلغ كبير مباشرةً من البداية.

بينما كنا في السيارة في طريقنا إلى مسرح جريمة القتل، أخبرني بن بأن مخبِره قال إن سكاردينو كان قد أغضب بالفعل الكثير من الناس، ولكنه بدا مندهشًا من تفاقم الأمور بهذه السرعة.

كنا نعرف بالفعل أن سكاردينو لم يمُت مِيتةً طبيعية أو عادية. فقد عثر حارس أمن على جثته بينما كان يُجري جولة حراسته في مرفأ هارويتش. كانت ثمَّة حاوية مفتوحة رغم أنه من المفترض أن تكون مغلقة. وعندما ذهب الحارس ليُلقي عليها نظرة، رأى شيئًا سيُفسد عليه نومه مدةً طويلة للغاية.

لم أحتج إلى السؤال عن الطريق. فقد ظللت أمُر برجال الشرطة بملابسهم الرسمية ووجوههم الكئيبة، وكانوا يشيرون إلى الطريق خلفهم والرعب يملأ أعينهم. كانت ثمة بقع من القيء على جوانب الأجزاء الأخيرة من الطريق.

كانت جثة جوي سكاردينو عارية تمامًا إلا من الحبال التي تقيدها. كانت الجثة مقيدة عند الطرف الآخر من الحاوية، وكانت أطرافها الأربعة تصنع حرف X كبيرًا في مواجهة جدار الحاوية. وكانت ثمة فجوة دامية في المكان حيث كان من المفترَض أن توجد مؤخرته. طبقًا لفريق الطب الشرعي، وضع شخصٌ ما قنبلةً في داخله ثم فجَّرها.

رأيت الكثير من مسارح الجرائم، ولكني لم أرَ مسرح جريمة أسوأ من هذا. أسرع بن مبتعدًا واضعًا يده على فمه وصوت تقيؤ جاف يصدر من حلقه.

أيًّا كان مَن قتل جوي سكاردينو، كان يرسل رسالة إلى العالم. هل تعتقد أن جاك فاريل كان مخيفًا؟ فكِّر مجددًا. وكانت وظيفتي أن أعثر على القاتل وأُسلمه إلى العدالة.

يا لي من محظوظ.

الفصل العاشر

الأمر الوحيد الغريب الذي يتعلَّق بجريمة قتل جوي سكاردينو، بخلاف كونها مُقزِّزة، أن أحدًا لم يدَّعِ مسئوليته عنها. النظام المتبَع في جرائم القتل مثل تلك، أن الخبر يتسرَّب. هكذا ينشر أمثال جاك فاريل في العالم الخوفَ الذي يمكِّنهم من فرض سيطرتهم. يصل الخبر إلى الأشرار أولًا. ثم يتسلل إلينا عبر مخبِرينا ورجال الشرطة المتخفِّين. قد لا يكون هناك أي دليل على تلك الأخبار، ولكنها ستصل إلى كل مَن يريدونه أن يعرف.

ولكن في حالة سكاردينو، لم تكن هناك أيُّ همسات. كان المشتبه بهم المعتادون يرمقُ أحدهم الآخر بنظراتٍ متشككة، متسائلين عمَّن أمر بقتل سكاردينو. لم يكن هناك حتى دافع واضح. نعم، اشترى جوي سكاردينو جزءًا من أعمال جاك فاريل. ونعم، كان موته يعني أن هذا الجزء سينتهي به المطاف بين يدي شخص آخر. وأغلب الظن أنه سينتهي بين يدي الشخص الذي قتله. ولكن لم يكن هذا ما حدث. فلا شيء يمر بهذه البساطة.

ما حدَث هو أن أعمال فاريل قد انهارت أسرع من باتسي كلاين. قُسمت الأعمال إلى كِسرات صغيرة، وأصبحت أعمال تزوير الهويات التي كان يديرها جاك فاريل تُدار بواسطة نصف دزِّينة من المجرمين الذين لا يصلحون لهذا العمل. لم يكن ثمة أي مستفيد من موت سكاردينو. بدا الأمر وكأنه لم يُقتَل بهدف الاستيلاء على الجزء اليسير الذي حصل عليه من الأعمال.

إن لم يكن هذا هو السبب، فما هو السبب؟

عثرنا على الجثة الثانية بعد خمسة أيام من العثور على جثة جوي سكاردينو. بدأ بريان كوبر وجاك فاريل حياتَيهما الإجرامية بالعمل لدى الزعيم نفسِه، وهو رجل عصابات مُسِن وقاسٍ من إيست إند يُدعى بيلي بوردمان. بدأ كلاهما العمل من الصفر عبر أداء أدنى مهام توزيع المخدرات. ولكن كان كلاهما أذكى من أن يبقَيا في القاع مدة طويلة.

شقَّ جاك طريقه صعودًا نحو قمة التنظيم، جاعلًا من المستحيل لبيلي أن يستغني عنه. ثم قُتل بيلي أثناء نومه بطلقة واحدة في الرأس. المؤسف في الأمر أن عروسه الشابة قُتِلت بجواره، وبالطريقة نفسها. لم يعرف أحد كيف عبَر القاتل الأمن دون أن يُكتشف. حسنًا، باستثناء مَن يعلمون أن جاك فاريل كان على علاقة بالعروس الجميلة.

حصل فاريل على الاحترام وعلى أغلب أعمال بيلي بوردمان. ولكنه لم يكن يرغب في أن يعمل بريان كوبر لصالحه. كان يعلم أن كوبر جشِع مثله تمامًا. وكان يعلم أن كوبر ربما قد بدأ التخطيط بالفعل لإزاحة فاريل عن طريقه. لذلك عقد فاريل وكوبر صفقة.

أن يحصل كوبر على تجارة المسروقات والتزوير، ويحصل فاريل على الباقي. وأن يبتعد كلٌّ منهما عن طريق الآخر. ألا يرسل فاريل فِرَقًا لبيع ساعات الرولكس الزائفة، وألا يرسل كوبر أحدًا للعمل في تجارة المخدرات أو الدعارة. ظلت هذه الصفقة صالحة مدةً طويلة. ولكن بدأت بعض الصدوع تظهر في جدران تلك الصفقة خلال الأشهر القليلة الماضية.

كان فاريل هو مَن بدأ العداوة، بكل المقاييس. كان يُحضِر عددًا أكبر من الفتيات من دول الكُتلة الشرقية سابقًا، حيث يأتي الكثير من البضائع ذات العلامات التجارية المزيَّفة. وبدلًا من الالتزام بالصفقة القديمة وبيعها إلى كوبر، أنشأ فاريل فريقًا من الشباب الصغار لتوزيع تلك البضائع المقلَّدة في الحانات والأسواق.

استاء كوبر كثيرًا. حتى إنه تجرأ وذهب إلى فاريل في مكتبه في سوهو ليتحدَّث معه عن الأمر. وغضب فاريل كثيرًا. فقد كان مكتبه في سوهو مخصَّصًا لأعماله القانونية. ولم تكن أي أعمال إجرامية تُناقش هناك. فضلًا عن حضور رجل عصابات مثل كوبر لم يتمكَّن من التخلص من فظاظة إيست إند.

طلب كوبر من فاريل «إتاوة» على عمله الجديد في البضائع المقلَّدة. القصة التي سمِعتها أن فاريل سخر منه. وأخبر فاريل كوبر أن السبب الوحيد في امتلاك كوبر عملًا هو أن فاريل يشعر بالعطف عليه بسبب صداقتهما القديمة. ثم قال فاريل لكوبر إنه، أي كوبر، سيدفع «إتاوة» لفاريل مقابل السماح له بالعمل.

ثار كوبر كثيرًا، وأطلق سَيلًا من التهديدات على فاريل. حدثت المشاجرة قبل أسبوعين من الحريق، وكان كوبر أحد الأوغاد الأشرار الذين حققنا معهم. ولا شك في أنه امتلك حجة غياب. دائمًا ما يمتلك أمثال بريان كوبر حجج غياب، فنادرًا ما يؤدون الأعمال غير القانونية بأنفسهم. ولكنها لم تكن حجة غياب مقنِعة فحسب. فقد بدت حقيقية للغاية.

لم أشعر أنها حجة غياب دبَّرها لأنه كان يعلم أنه سيحتاج إليها. وهذا جعلني أفكِّر أنه لم يكن يتوقَّع أن تموت كاتي تلك الليلة. وهذا يعني بدوره أنه من المحتمل ألا يكون مَن أمر بالقتل. ولكنه لا يزال على قائمتي.

ولكن يبدو أن كوبر كان لديه أعداء آخرون بخلاف جاك فاريل. وأحدهم تخلَّص منه بطريقة شنيعة للغاية.

الفصل الحادي عشر

استغرق بريان كوبر وقتًا طويلًا ليموت. ولم تكن تلك الفترة جيدة بالنسبة له. قُتل كوبر في المخزن الذي يحتفظ فيه ببضاعته. ربطه القاتل في مقعد، ثم وضع قدميه في دلوين مليئتين بالخرسانة السريعة الجفاف. وبمجرد أن أصبح متيقنًا من أن كوبر لن يستطيع الهرب، قطع القاتل عروقه من عند الرسغَين والمرفقين. ونزف كوبر دمه حتى مات، عاريًا، مُقيَّدًا، وعلى الأرجح، وحيدًا.

وقفت في المخزن محاولًا ألا أنظر إلى تلك الفوضى الدموية. ولكنها كانت تجذب بصري نحوها كلما أشحت به عنها، كما لو كانت مغناطيسًا وكنت أنا برادة الحديد. قُتل جوي سكاردينو أولًا، والآن قُتل بريان كوبر. ثمة شخص يحاول أن يصنع لنفسه إمبراطورية، ويفعل ذلك بأكثر الطرق التي فكَّر فيها وحشيةً وقسوة.

إن كنتُ أحد زعماء الجريمة، كنت سأرتعد خوفًا. وكنت سأحبس نفسي في أكثر غُرَفي أمانًا، وأُسلح نفسي بالكثير من المسدسات والطلقات، وأبقى في مكاني حتى تنتهي حرب السيطرة على أعمال جاك فاريل.

ولكني كنت سأخرج من مخبئي ذات يوم وأواجه المنتصر. وحينئذٍ، قد تصب الاحتمالات في صالحي. على الأقل كنت سأعرف مَن أواجه.

لا شك في أني كنت على الجانب الآخر من القانون. وكنت أنا المُكلَّف باكتشاف المسئول عن جرائم القتل هذه قبل أن يتبقى المنتصر فقط. وإذا ما تركتُ الأمور تصل إلى ذلك الحد، فسأكون قد تأخَّرت كثيرًا. وسيكون الجميع قد انخرطوا في النظام الجديد. وسيصبحون خائفين إلى درجة أنهم لن يسلِّموا لي ذلك المخلوق الوحشي الذي يملك حياتهم وموتهم جميعًا. مات الملك. ليُطِل الله عمر الملك.

كان الجو باردًا في المخزن، فارتجفتُ، على الرغم من معطفي الثقيل. التفتُّ نحو مساعدي الرقيب. وقلت: «هل لديك أي أفكار يا بن؟»

أطلق زفرةً مرهقة. وقال: «لا أرى منطقًا في كلِّ ما يحدث. ثمة الكثير من الأشرار لنختار من بينهم، ولكن لا يمكنني التفكير في شخصٍ قاسٍ لهذه الدرجة.»

أدركت ما يعني. درجة العنف هذه لا تأتي من فراغ. فلا بد من جذور لها. تستغرق وقتًا حتى تتفاقم. ولكني لم أتمكن من تحديد الشخص الذي وصل إلى هذا المستوى من إراقة الدماء بمثل هذه السادية. قلت: «لا بد من أنه وجه جديد.»

سألني بن: «هل هم الرُّوس؟ أم الشيشانيون؟»

«هذا محتمل.» وزفرت. ثم استدركت: «لمَ لا يكتفون بكرة القدم فحسب؟»

«إنها لا تدرُّ ما يكفي من المال أيها الرئيس. إلا إذا كنتَ ديفيد بيكهام.» نظر بن إلى ما تبقى من بريان كوبر. وقال: «أيًّا مَن كان الفاعل، فهو يرسل رسالة شديدة الوضوح.»

قلت: «نعم. انتهى فاريل، وأنا الملك الجديد لهذا العالم. علينا أن نزيد الضغط على مخبرينا. يبدو أنهم صمتوا جميعهم فجأة.» نهضت واقفًا، وأدرتُ كتفيَّ وضربت الأسمنت البارد بقدمي. وقلت: «أعتقد أنه حان الوقت لاستفزاز البعض.»

قال بن: «دع هذا الأمر لي أيها الرئيس. سأنشر الخبر.»

أومأت برأسي. كان من الجيد أن يكون هناك مَن يُمكنني الاعتماد عليه فيما يتعلَّق بجمع المعلومات. كان بن هو الشخص الوحيد الذي صمَّمت على إحضاره معي عندما انتقلت إلى قسم الجنايات. كان كلٌّ منا يعرف أسلوب الآخر، وكنت أعلم أنه يمكنني أن أثق بأنه سيفعل ما يجب فعله. كان من المفيد أيضًا أنه يبدو ظاهريًّا كوغدٍ قاسٍ. ويجدر بك أن تراه وهو يتعامل مع أطفاله لتُدرك أن هذا المظهر خادع.

سألته في أثناء عودتنا إلى السيارة: «هل أحرزنا أيَّ تقدم فيما يتعلق بقاتل كاتي فاريل؟»

هزَّ بن رأسه نفيًا. وقال: «لا، على الإطلاق.»

قلتُ: «كنتُ أعتقد أنه بعد خروج فاريل من الصورة سيظهر الكثير من الانتهازيين. مَن قد يرفض فرصة أن يبدو جريئًا للغاية مع عدم وجود أي احتمالية للانتقام؟»

بصق بن علكةَ النيكوتين على الأرض بعدما خرجنا من المخزن إلى هواء الصباح البارد. وقال: «معك الحق. ولكني أعتقد أن مَن ارتكب تلك الجريمة يعلم أنها ليست مَدعاةً للفخر. إنَّ قتْل جاك فاريل هو ما يدعو إلى الفخر. ولكن هل تعتقد أن الأمر نفسه ينطبق على

حرق طفلة في التاسعة من عمرها حتى الموت؟ لا أعتقد أن كثيرًا من الناس قد يُهرعون إلى الادعاء بأنهم مَن فعل ذلك.»

«ربما. ولكن لا تعجبني حقيقة أننا لم نحرز أيَّ تقدُّم.» اتجهنا نحو سيارتنا، وسرنا بسرعة أكبر بعدما ضربتنا الرياح ببرودتها.

سألني بن وهو يجلس خلف عجلة القيادة: «متى ستعود ستيلا؟»

«بعد أسبوع أو نحوه.»

أطلق بن ضحكة قصيرة.

فقلت له: «ماذا يضحكك؟ هل تعتقد أني أعُد الأيام أو شيئًا من هذا القبيل؟»

قال وهو يدير محرك السيارة ويرجع بالسيارة إلى الخلف ليخرج من مكان الانتظار: «لم أقُل ذلك أيها الرئيس. كنت أفكر فقط في مدى استيائها عندما تعرف أنها فوَّتت كل هذه الجثث. أولًا، عثرنا على فاريل، ثم جوي سكار، والآن، كوبر. ليس لأن هناك غموضًا يكتنف حالةَ أي منهم. بل لأنها تحب الأمور الخارجة عن المألوف، هذه طبيعة ستيلا.»

كان أي شخص آخر سيرفع صوته بطريقة موحية في تلك الجملة الأخيرة. ولكن بن كان يدرك أني لن أسمح بمحاولة أن يُلَمِّح عن ستيلا أمامي. كنت واثقًا بأن دعابات أفراد الوحدة كانت تدور عني وعنها. إننا نعرف كيف يكون رجال الشرطة، كيف لا ونحن منهم؟ ولكن، ما دامت تلك التُّرَّهات السخيفة تدور خلف ظهري، فلا أهتم لها كثيرًا. واليوم الذي سيتجرَّءون فيه على محاولة التلميح أمامي، سيكون اليوم الذي أعرف فيه أني قد فقدت سيطرتي عليهم. ولكني خططتُ لأن يظل هذا اليوم بعيدًا للغاية.

قلت: «حسنًا، يمكنها أن تذهب إلى المشرحة وتفتح الثلاجات وتلقي نظرةً على الجثث عندما تعود. الجثث لن تذهب إلى أي مكان.»

ضحِك بن. وقال: «المشرحة أفضل مكان بالنسبة إلى هذه الجثث. من المؤسف أنه لا يمكننا وضْع المزيد من الأوغاد في ثلاجات المشرحة. كان هذا سيسهِّل كثيرًا من عملنا.»

تذكَّرت كلماته تلك عندما عُثر على الجثة التالية. وتبيَّن أنه كان مخطئًا للغاية.

الفصل الثاني عشر

كنتُ جالسًا في مطار هيثرو أنتظر انتهاء ستيلا من إجراءات الجمارك والجوازات عندما وصلني اتصال هاتفي. لم تكن الموظفة التي تتحدَّث معي عبر الهاتف تملك الكثير من المعلومات. كلُّ ما أخبرتني به هو أنه عُثر على جثة في حوض بادينجتون، وأن ثمة مَن أخبرها بأن تخطرني بالأمر.

سألتها: «هل يريدون مني أن أذهب إلى مسرح الجريمة؟»

فقالت: «نعم. في أقرب وقتٍ ممكن، هذا هو المكتوب أمامي على الشاشة.»

قلت: «سأذهب»، ثم أنهيت المكالمة. لقد قطعتُ كل هذه المسافة لإحضار ستيلا، ولن أعود خاليَ الوفاض. إنها لن تتأخر أكثر من ذلك، كما أنها قد تأتي إلى مسرح الجريمة معي، إذا شعرت بالرغبة في ذلك. إنه يقع في طريقنا إلى منزلها في مقاطعة سانت جونز وود على أي حال.

لم أخبر ستيلا بأني سأكون في استقبالها. فقد حصلت على موعد رحلتها من سكرتيرتها، وليس منها. أردت أن أفاجئها. لذا، كان من المستحيل أن أنصرف، ليس من أجل جثة لن تبرح مكانها.

بعد بضع دقائق من ذلك التنبيه الذي جاءني عبر الهاتف، رأيت ستيلا تسير في صالة المطار نحوي. كان من النادر أن أتمكن من مشاهدتها دون علمها، فتركت عينَي تستمتعان برشاقة خطواتها. كانت قد ربطت شعرها إلى الخلف في تصفيفة ذيل حصان، وكانت عيناها مجهدتين، ولكني أرجعت ذلك إلى أنها خرجت للتوِّ من رحلة طيران استغرقت الليل بطوله، وبالنظر إلى هذا فقد كانت تبدو يقظة تمامًا. لم أتمالك نفسي. وارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة.

كانت على بُعد بضع ياردات مني عندما رأتني. ارتفع حاجباها في دهشة، ولكن تبِعت الدهشة ابتسامة سريعة شعرتُ بصدقها. تقدمتُ نحوها وقبَّل أحدنا الآخر مثل الأصدقاء، على الوجنتين. قالت وهي تضع حقيبة ملابسها أرضًا وتعانقني: «يا إلهي، آندي. مرافقي الخاص من الشرطة.»

تركت ذراعَي تلتفَّان حولها، مستنشقًا رائحة اللافندر، ومستشعرًا دفء جسدها. وقلت: «نتعاون معًا لتزداد لندن أمانًا. هذا شعارنا.»

أمسكت بمقبض حقيبتها ذات العجلات وسرت وراءها بخطوة. سألتها: «هل كانت الرحلة جيدة؟»

قالت: «لقد انتهت. هذا أفضلُ ما يمكن قوله عن رحلات الطيران. ماذا فعلت من دوني؟»

«آندي الرجل، أم آندي الشرطي؟»

وضعت ذراعها في ذراعي. وقالت: «نحن في مكان عام يا آندي. من الأفضل أن تلتزم بجانب الشرطي في الوقت الحالي.»

بينما كنا نشق طريقنا نحو السيارة، حكيت لها كلَّ ما فاتها بينما كانت تراقب الجثث وهي تتعفن في الولايات المتحدة. انتهيت من إخبارها بكل شيء بينما نحن على الطريق السريع في طريق عودتنا إلى لندن. قالت: «رائع. خرج الجني من القمقم بعدما قتل جاك فاريل نفسه.»

صحت قائلًا: «يا له من جني. إذا كانت لديَّ ثلاث أمنيات، لم أكن لأضيِّعها بهذه الطريقة.»

«هل أنت واثق بذلك؟ إنه ينظِّف الشوارع من الكثير من القمامة.»

كانت محقة في هذه النقطة. «في واقع الأمر، لا أمانع أن يذهبوا جميعهم إلى الجحيم. ولكني لم أُعد أتحمَّل مسارح الجرائم العنيفة.»

قالت ستيلا: «عميقًا في داخلك يا آندي، أنت مخنَّث.»

ضحِك كلانا. ثم قلت: «إذا كنتِ تشعرين بأنه فاتك الكثير، يمكننا أن نأخذ جثةً طازجة في طريقنا إلى منزلك.»

اعتدلت ستيلا في مقعدها لتنظر نحوي. وقالت: «أنت تعرف كيفيةَ الوصول إلى قلب الفتيات، أليس كذلك؟»

غامرت بالنظر إليها نظرةً خاطفة. وقلت: «آمل ذلك. فيما يتعلق بكِ على الأقل. لقد افتقدتك يا ستيلا.»

أومأت برأسها كما لو أنها تدرك ذلك. وقالت: «لطف منك أن تقول ذلك.» غيَّرت ستيلا من جِلستها على المقعد، ووضعت يدها على فخذي. لم أشعر بأن لمستها تحمل مغزًى جنسيًّا. شعرت أنها كانت تريد لمسي فحسب. قالت: «ولكن كان الابتعاد مفيدًا. لقد جعلني أفكِّر فيما إذا كان الوقت قد حان لأن نعيد التفكير فيما يحدث بيننا.»

لم يكن هذا ما خطَّطت له في ذهني. كنت أعتقد أن الأمور ستعود إلى نصابها الصحيح كما في السابق. قضيت شهرًا كاملًا نائمًا بمفردي، وكنت أتطلع إلى تغيير هذا الوضع. وفكَّرت أنه حان الوقت لبعض الكلام المعسول. قلت رابتًا على يدها: «يبدو أن الأمر كان يحتاج إلى أن تذهبي إلى أمريكا لكي ندرك مقدار حب أحدنا للآخر.»

قالت ببطء: «لم أكن لأصيغ الأمر هكذا. أعتقد أن ما أحاول قوله هو أننا نحتاج إلى أن نتخذ قرارًا.»

لم أرتَح لطريقة قولها لتلك الجملة. فقلت: «بخصوص ماذا؟»

«بخصوص الاستمرار في علاقتنا.» أعادت يدها إلى حجرها. وقالت: «آندي، وصلت حياتي حاليًّا إلى مفترق طرق. بينما كنت في مزرعة الجثث، أخبروني بوضوحٍ أن ثمة وظيفةً لي هناك إذا ما أردتها. أحب عملي هنا. ولكني أعلم أني سأحب أيضًا عملي هناك. لا يمكنني الاختيار بين البقاء هنا أو الذهاب إلى هناك بناءً على العمل فحسب.» ثم تنهَّدت. وقالت: «كنت آمل أن أفكِّر في الأمر في جوٍّ أكثر استرخاءً من ذلك.»

كنت أعرف ما تعني تمامًا. لم يكن هذا هو المشهد الذي تخيَّلته في طريقي إلى المطار. فقلت: «ماذا تقولين يا ستيلا؟»

«الأمر بسيط يا آندي. إذا كنت سأبقى، فلا بد من وجود سبب قوي يجعلني أفعل ذلك. يمكنك أن تكون هذا السبب. ولكن لكي تصبح هذا السبب، أحتاج منك إلى أكثرَ بكثير مما كنت تعطيني إياه قبل أن أسافر. أحتاج إلى شيء أكثرَ من مجرد ممارسة جنس عابرة بين صديقين.»

زممت شفتَي، وزفرت الهواء الذي كنت أحبسه في صدري. لم يكن الأمر سيئًا مثلما خشيت. فقلت: «ستيلا، لا أعرف كيف ...»

قالت بنبرة صوت آمرة: «لا، ليس الآن. فكِّر في الأمر قبل أن تقول أي شيء. لسنا في عجلة من أمرنا.» جلستْ في مقعدها مشدودة الظهر ما أوحى لي بأن الموضوع قد أُغلق في الوقت الحالي. ثم قالت: «والآن، أكنت تقول شيئًا عن جثة؟»

الفصل الثالث عشر

كانت كلمات ستيلا لا تزال ترنُّ في أذنَي بينما أوقف السيارة بجوار سيارات الشرطة الأخرى التي تحدِّد مكان مسرح الجريمة. ولكن في غضون دقائق، شعرت بأنها غير ذات أهمية على الإطلاق.

فقد أحاطت أشرطة الشرطة بمنطقة مجاوِرة لأحد الأعمدة العملاقة التي تحمل الجزء المرفوع من الطريق الغربية. كانت تبدو كصحراء تقليدية وسط المدينة. كانت شحيحة العشب، وتتناثر فيها القمامة في كل مكان، وعبق الهواء برائحة عوادم السيارات والعفن. أخرجت ستيلا حقيبة أدواتها من صندوق السيارة، وسارت نحو مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون بذلًا بيضاء.

كنا على بُعد بضع ياردات من المجموعة عندما انسلخ رجل من المجموعة واعترض طريقنا. حضرتني ذكرى مشوَّشة عن لقائي به سابقًا في إحدى الدورات التدريبية، ولكنني لم أتذكر اسمه أو رتبته. لحسن الحظ، لم أكن في حاجة إلى ذلك. قال الرجل بصوتٍ عالٍ لنتمكَّن من سماعه رغم ضوضاء الطريق: «رئيس مكتب التحقيقات مارتن.» ومدَّ يده ليصافحني. ولكني جفلت للحظة. لم يعتد رجال الشرطة المصافحات. بينما كنَّا نتصافح، واصل حديثه. وقال: «اسمي جون برتون، المحقِّق برتون. وأعتذر عن استدعائي لك بهذه الطريقة.»

هززت كتفَي. وقلت: «يتم استدعائي طوال الوقت. تتعلق تلك الاستدعاءات بعملي في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى لا تكون كذلك. لا حاجة بك إلى الاعتذار.»

بدت الحيرة على وجه برتون. وقال: «ألم يخبرك أحد بما حدث؟»

قلت: «كل ما تلقيته هو استدعاء للحضور إلى هنا. لماذا؟ هل ثمة ما هو أكثر من ذلك؟»

جال برتون ببصره في أنحاء المكان. ولم يتمكَّن من تثبيت عينيه عليَّ أو على ستيلا أو على أي شيء آخر. وقال بصوتٍ خافت: «اللعنة.» ثم أمسك بذراعي محاولًا توجيهي لكي يحادثني على انفراد.

فحرَّرت ذراعي من يده. وقلت: «يمكنك أن تقول ما تريد أمام الطبيبة مارينو. إذا كانت هذه جثة تخص عملي، فسوف تتولى تشريحها.»

لعق برتون شفتيه. وقال مجددًا: «أنا آسف للغاية.»

قالت ستيلا: «هلا ندخل في صلب الموضوع؟ لقد قطعت للتوِّ المسافة من أمريكا إلى هنا، وأريد أن أفحص الجثة قبل أن أموت بسبب قلة النوم.»

أومأ برتون برأسه وتنحنح. وقال محاولًا تجنَّب التقاء عينينا: «إننا نعرف هوية الضحية.»

لم أشعر بوجود كارثة وشيكة. على الإطلاق. ويرجع الفضل في ذلك إلى حدْس رجل الشرطة. قلت: «نعم؟» وبدأت أنزعج بسبب الفترة الطويلة التي قضيتها منتظرًا.

أخذ برتون نفسًا عميقًا. وقال: «إنه مساعدك. الرقيب ويلسون.»

شعرت كأني تلقيتُ لكمة في حلقي. لم أتمكَّن من التنفس، ولم تحملني ساقاي كأني عدوت نصف مسافة سباق الماراثون. شعرت بيد ستيلا توضع على ذراعي. كان هذا ما جعلني أحافظ على اتزاني. قلت محاولًا إنكار ما قيل: «بن؟»

«بلا أدنى شك. بطاقة هويته معه، كما أن أحد رجالي كان قد تدرَّب معه.»

شعرت بإعياءٍ شديد، وأردت أن أنهار على الأرض، وألفُّ ذراعَي حول ركبتَي. ولكن كان يجب أن أُرجئ مشاعري إلى وقت لاحق. كنت مَدينًا لبِن بمعرفةِ ما حدث في هذا المكان الكريه. قلت وأنا أمُرُّ متخطيًا برتون: «أريد أن أراه.»

فقال: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة.» فقلت محتدًّا: «هذا مساعدي، وتلك قضيتي. أصبح يخصني الآن.» سرت نحو المكان الذي كنت أعلم أن الجثة موجودة فيه، وسط الرجال الذين يرتدون البذل البيضاء. كنت أشعر بستيلا تسير خلفي.

عندما رأيت ما تبقَّى من بن، أدركت لمَ كان برتون يحاول إبعادي. حتى إن ستيلا شهقت بسبب المنظر، رغم اعتيادها رؤيةَ أبشع الأمور التي يمكن للبشر أن يفعلها بعضهم في بعض.

كان في وضع الجلوس مسنودًا إلى أحد الأعمدة. كانت ساقاه متباعدتَين لمنعه من الانقلاب على وجهه. كان رأسه مائلًا إلى أحد الجانبين، وبدا طبيعيًّا فيما عدا أنه كان بلا

وجه. كان وجهه مسلوخًا، مثل سلخ فروة الرأس ولكن بالعكس. كان الشعر سليمًا، ولكن اختفى الوجه. كان جذعه عاريًا ومشقوقًا بدايةً من حلقه حتى سرَّته. ومن الجلي أنه كان حيًّا عندما حدث ذلك. كانت يداه تمسكان أعضاءه الداخلية، كما لو كان يحاول أن يدفعها إلى الداخل مجددًا.

لم أبكِ في مسرح جريمة من قبلُ رغم أني رأيت الكثير من الأهوال. ولكني بكيت بن، وانسكبت دموعي على وجنتَي ثخينة وساخنة. لم أكلِّف نفسي حتى عناء مسحها. ولم أشعر بأي خجل من التعبير عما أشعر به.

أشحت بوجهي بعيدًا في نهاية المطاف. كانت ستيلا تقف بجواري، وقد تجمَّدت ملامحها كأنها ترتدي قناعًا. قلت: «ابدئي العمل. اعثري على شيء يوصلني إلى الوغد الذي فعل هذا.»

قالت: «إذا كان موجودًا، فسأعثر عليه.»

كان برتون يقف بجوارها مباشرة. قال: «كيف تريد أن يسير التحقيق؟»

قلت: «يجب أن يمرَّ كل شيء على مكتبي. دع رئيسك يتحدث مع رئيسي. علينا أن نكون على إطلاع بكلِّ ما يحدث فيما يتعلق بهذه القضية. لدينا معلومات لا تعرفونها، ولكننا سنشارك معكم المعلومات التي ستحتاجون إليها. خلاصة الأمر، يجب أن نمسك بالحيوان الذي فعل ذلك. ولا يهمني ماذا سنبذل في سبيل تحقيق هذه الغاية. ولتذهب القواعد إلى الجحيم في هذه القضية.»

أومأ برتون برأسه. وقال: «لا يمكنني أن أعارضك في ذلك. سأتأكد من إطلاعك على كلِّ ما نعرف على الفور.»

سرتُ بضع خطوات في اتجاه سيارتي، ثم توقَّفت. وسألت: «مَن عثر عليه؟»

«رجال الإطفاء.»

«رجال الإطفاء؟ ولمَ جاءوا هنا؟» كنت متحيرًا.

أشار برتون إلى منطقةٍ محروقة العشب تبعُد نحو عشرين قدمًا عن جثة بن. لم ألحظ وجودها من قبل. كان هذا يدل على أني كنت بعيدًا كل البعد عن كوني شرطيًّا حينئذٍ. قال: «أشعل أحدهم النار. لتكون بمنزلة منارة أو شيئًا من هذا القبيل. رأى النار عامل نظافة في أحد القطارات، كان ذاهبًا إلى منزله في بادينجتون وأبلغ عنها. وعندما وصل رجال الإطفاء هنا، عثروا على جثة الرقيب ويلسون.» أشاح برتون بوجهه بعيدًا. وقال: «إنهم يرجِّحون أنه لم يكن قد مات منذ مدة طويلة.»

حاولت ألا أفكر في الأمر. قدت السيارة عائدًا إلى مكتبي ومسألة النار تدور في ذهني. ما الهدف من التأكد من العثور على جثة بن سريعًا؟ لماذا أرادوا كشف جريمة القتل سريعًا؟ في الغالب، يحاول القتَلة أن تظل الجثث مختفية حتى يتوفَّر لهم المزيد من الوقت لإخفاء آثارهم.

أيًّا كان مَن قتل بن، فقد أراد أن نعرف. كان يبعث لنا برسالة، وكان يريد منا أن نتسلَّمها. وبسرعة.

الفصل الرابع عشر

يُقال إنه إذا لم يبدأ غموض أي قضية في التكشُّف خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى، فإنها لن تُحل أبدًا. لم أومن قَطُّ بهذا الاعتقاد. فلو كنت فعلت، لم أكن لأحل نصف عدد القضايا التي حللتها. إذا ما واصلت المحاولة، ففي تسعٍ من كل عشر قضايا، ستحصل على نتيجةٍ ما. ولكن بعد مرور خمسة أيام من عدم إحراز أي تقدم، بدأت أخشى أن يكون مقتل بن هو القضية الوحيدة من كل عشر قضايا التي ليس لها حل.

لم يكن الأمر يتعلَّق بالاجتهاد في العمل. كنت أعرف أن جميع ضباط فِرقتي يعملون فتراتٍ أطول بكثير من ساعات عملهم المحددة، غير عابئين بما إذا كانوا سيتقاضون أجورًا إضافية أم لا. ومما سمِعته من جون برتون، كان الأمر نفسه ينطبق على فِرقته. عندما يُقتل شرطي، يصبح الوضع هكذا. ولم نهمل قضيتَي جوي سكارديتو وبريان كوبر، بل كان العمل عليهما يجري على قدمٍ وساق.

لم أتمكَّن من رؤية ستيلا كثيرًا منذ صباح يوم عودتها. كنت أعمل منذ لحظة استيقاظي حتى موعد النوم وما بعده أيضًا، ولم أكن أعود إلى المنزل إلا لخطف بضع ساعات من النوم عندما يعجز جسدي وذهني عن الصمود. أعدَّت ستيلا تقريرَ تشريح جثة بن. وكان تقريرها أكثرَ تقريرٍ مفصَّل قرأتُه في حياتي. فيما عدا ذلك، لم أكن أعرف أين تكون أو ماذا تفعل. ومن ثَم، لم أكن أعرف كيف سنغيِّر الوضع فيما بيننا. كانت هذه الخطوة ستؤجل إلى ما بعد الزج بقاتل بن في السجن.

بعد ستة أيام من بدء البحث عن الوحش الذي ذبح بن، جاءت ستيلا إلى مكتبي والجدية بادية على وجهها. وقالت ملقيةً جسدها على المقعد المواجه لمكتبي: «أريد أن أتحدَّث إليك يا آندي.» بدت كأنها لم تحظَ بقسطٍ كافٍ من النوم منذ عودتها، كحالي تمامًا.

«أسعد بالتحدُّث إليك دائمًا، يا ستيلا.» لم أكن أغازلها، وكانت تدرك ذلك.

قالت: «لقد قضيت الأيام القليلة الماضية وحدي تمامًا. أعلم أنه يجدر بي أن أثق بأن مَن أعمل معهم سيؤدون عملهم على الوجه الأكمل، ولكني لم أستطع منع نفسي. يمكنك أن تقول إني مهووسة بالسيطرة، ولكن لو لم أُجرِ تشريح الجثة بنفسي، لظللت أفكِّر طوال الوقت في أن ثمة المزيد لاكتشافه.» بدا بعض الإحراج على وجهها، ولكني لم أرَ داعيًا إلى ذلك. فأنا مثلها تمامًا.

قلت: «على الأرجح أنك محقة في ذلك. فأنت الأفضل في هذا المجال.»

رمقتني بنظرة سريعة، فلم تكن تعلم إذا ما كنت أسخر منها. ثم ابتسمت وهزَّت كتفَيها. وقالت: «لا يهم. على أي حال، بمجرد أن انتهيت من عملي على جثة بن، فكَّرت في أن ألقيَ نظرة على بقية الجثث التي كنت تتعثَّر بها خلال غيابي.» وفتحت أحد الملفات التي أحضرتها معها، ثم رمقتني بعينين جادتين. وشعرت ببعض الخوف.

قالت: «أريدك أن تُصدِقني القول، يا آندي. هل تربط مقتل بن ببقية جرائم القتل التي حدثت مؤخرًا، أم إنك تتعامل معه كجريمة منفصلة؟»

قطَّبت جبيني. وقلت: «لمَ قد ترتبط بمقتل جوي سكاردينو وبريان كوبر؟ لقد قُتل كلاهما لأن شخصًا يحاول السيطرة على إمبراطورية جاك فاريل.»

قالت ستيلا بذلك الصوت الناعم الذي تستخدمه دائمًا عندما تعتقد أني في حاجة إلى تهدئة: «لا أعرف السبب. ربما أوشك بن على اكتشافِ هوية الإمبراطور الجديد، وكان يجب إخراسه.»

هززت رأسي نفيًا. «ليس من دون أن يخبرني بما توصَّل إليه. كنا فريقًا، أنا وبن. لم يكن ليخفي عني أمرًا على هذا القدْر من الأهمية. ولكن لمَ تسألينني عن ذلك، يا ستيلا؟ فيمَ تفكرين؟»

أخرجت ستيلا عددًا من الصور وفرَدَتها على مكتبي. وقالت: «قُتل بريان كوبر وبن بالسكين نفسها، يا آندي.» وطرقت بإصبعها على الصور لتريني الأماكن حيث تتطابق الجروح والتمزقات. «هنا، وهنا، وهنا. جميعها متطابقة. إنها ليست سكينًا عادية؛ لذا، لا يوجد شك في أنها السكين نفسها. أعتقد أنها واحدة من سكاكين الجبن الفاخرة تلك. هل تعرف أيها أقصد؟ لهذه السكاكين نصلٌ معقوف حاد للغاية به أجزاء مفرَّغة ليقطع الجبن الصلب بسهولة. كما أن له سِنَّين في طرَفه.»

أشارت إلى بعض التفاصيل. وقالت: «هل ترى؟ علامتا الطعن متجاورتان. أعتقد أن القاتل استخدم واحدة من سكاكين الجبن هذه لقتل كوبر وبن.»

واجهتُ صعوبة في تصديقِ ما كانت تقوله ستيلا. «غير معقول. لا أرى أي سبب يدفع قاتل بريان كوبر إلى قتل بن.»

بدا عدم الارتياح على وجه ستيلا. «هلا نعود إلى هذه النقطة في وقت لاحق، من فضلك، يا آندي؟ فلديَّ شيء آخر أريد أن أخبرك به. شيء ربما يساعدك على استيعاب هذا الأمر.»

قلت: «حسنًا. أنا مستعد لأي شيء من شأنه ألا يجعلني أشعر كأني على الجانب الخطأ من بلورة العراف.»

«فكرت في العودة وإلقاء نظرة أخرى على جثة جاك فاريل.»

سألتها: «هل تعتقدين أن هناك مَن قتله وجعل الأمر يبدو كأنه انتحار؟ أنتِ مخطئة يا ستيلا. لقد شهد محامي فاريل بصحة رسالة الانتحار. لم يقرأ محتواها، ولكنه أقرَّ بصحة التوقيع.»

ارتسمت على شفتَي ستيلا ابتسامة امتعاض. وقالت: «لم يكن هذا ما سأقول، يا آندي.»

لويتُ قسمات وجهي، وقلت: «معذرة. لا يجب أن أتحدث بلسانك. استمري. أخبريني عن سبب رغبتك في فحص جثة جاك مجددًا.»

«لا يوجد سبب محدد. كلُّ ما في الأمر، أن جميع الأحداث بدأت من عنده. وفي واقع الأمر، من الجيد أني فعلت.» فتحَتِ الملفَّ الثاني الذي كانت تحمله. ومن حيث أجلس، رأيت رسمًا تخطيطيًّا عموديًّا وصورًا ملوَّنة لمقطعٍ عرضي من جزءٍ من جسم إنسان.

قالت ستيلا، وهي تنظر في عينيَّ مباشرة: «راجعتُ تلك النتائج ثلاث مرات للتأكد من أنني على صواب. آندي، أيًّا كان مَن وضعته في ثلاجة المشرحة، فهو ليس جاك فاريل.»

الفصل الخامس عشر

لم أعرف ما يجدر بي قوله. فقلت: «ماذا تعنين بأنه ليس جاك فاريل؟ لقد تعرَّفت عليه بنفسي.»

«أعلم ذلك، فقد قرأت التقارير. هل يمكنني أن أسألك لمَ كنتَ أنت مَن تعرَّف عليه في نهاية المطاف؟»

«كانت الزوجة تحت تأثير المهدئات، ولم تكن ثمة طريقة لجعلها تتعرَّف على الجثة. وكنت أعرف أنه هو.»

«كيف عرفت أنه هو؟» كانت ستيلا ترمقني بتلك النظرة الحذِرة، النظرة التي تستخدمها عندما تعتقد أنها تقودني إلى نقطةٍ لن تعجبني.

قلت: «الوشوم.»

تجهَّم وجه ستيلا. وقالت: «هذا ما اعتقدت. ولكنك كنتَ مخطئًا، يا آندي.»

قلت معترضًا: «مهلًا، يا ستيلا. إنك لا تقولين إن ثمة رجلَين في الجوار يحملان وشومًا متطابقة إلى هذه الدرجة. هذا مستحيل.»

«أعلم أن هذا صعب التصديق، ولكن إذا كنتَ رأيت وشومه بينما جاك فاريل حي يُرزق، كنت ستقول إن هذا ليس جسده.»

هززتُ رأسي نفيًا. وقلت: «كيف تقولين ذلك؟»

«إليكَ ما أعرفه عن الوشوم. عندما تنتهي من رسمها على جسدك، يمتص الجلد الصبغة عميقًا، وتصل إلى جهازك المناعي. وتُرسم على أقرب غدة ليمفاوية في جسدك، وتظل في مكانها لما تبقى من حياتك. عندما أقطع غددك الليمفاوية بعد موتك، يمكنني رؤية بقعٍ من شأنها أن تخبرني بأي جزء من الجسم رُسمت عليه وشوم، وكذلك لونها. في

واقع الأمر، إذا كان الوشم قديمًا، فستكون الألوان داخل الغدة الليمفاوية أزهى من الألوان على الجلد.»

فغرت فمي ذاهلًا. وقلت متذكرًا أن أغلق فمي بعد أن أنتهيَ من حديثي: «أنت تمزحين.»

قالت ستيلا: «بل أنا جادة تمامًا. كانت المرة الأولى التي عرفت فيها هذه المعلومة عندما شرَّحت جذع إنسان جرفته الأمواج إلى الشاطئ الطيني لجزيرة الكلاب. تمكَّنت من أن أخبركم، معشرَ رجال الشرطة، بأن الجثة كان مرسومًا على ذراعها اليسرى وشمٌ باللونين الأحمر والأزرق، وعلى ذراعها اليمنى وشمٌ باللونين الأزرق والأخضر. وكان هذا كافيًا لتحديد هوية الشخص من قائمة المفقودين.»

قلت: «حسنًا، حسنًا. ما زلت لا أعرف كيف أخبركِ ذلك بأن هذا ليس جاك فاريل.»

قالت ستيلا مشيرةً إلى بعض صور المقاطع العرضية: «الغدد الليمفاوية في هذه الجثة نظيفة.»

«لم أفهم.»

«يُسحب الحبر إلى داخل الغدد الليمفاوية عندما تكون حيًّا فقط. تلك الوشوم رُسمت بعد الوفاة. وليس قبلها.» انحنت ستيلا نحو الأمام ونظرت إليَّ نظرة جادة. وقالت: «لا يمكن أن تكون هذه الجثة جثة جاك فاريل.»

أغمضت عينيَّ. شعرت كأني في كابوسٍ مخيف. أخذت نفسًا عميقًا، وحدقت إلى وجه ستيلا بغضب. لم يكن ذلك خطأها، ولكنها كانت تجلس حيث وجَّهت بصري. «إذا كان ما تقولينه صحيحًا، فقد قتل جاك فاريل هذا الرجل ...»

قاطعتني ستيلا قائلة: «أو أمر بقتله.»

«أو أمر بقتله. ثم أمر برسم الوشوم على جسمه لتكون نسخة طبق الأصل من وشومه هو شخصيًّا، ثم شوَّه وجه الجثة وجعل الأمر يبدو كأن سرطانات البحر قد التهمت أطراف أصابعه.» مرَّرت يدي على وجهي. كان التعبير الذي ارتسم على وجهي يضاهي مشاعري تمامًا. وقلتُ: «تلك خطوات متطرفة للغاية ليجعلنا نظن أنه مات.»

قالت ستيلا: «مما أخبرتَني به عن جاك فاريل، التطرف من شيمه الأصيلة.»

«ولكن لماذا؟ ما الهدف؟» كان صوتي مسموعًا، ولكني في الحقيقة كنتُ أحادث نفسي.

قالت ستيلا: «ربما أرعبه موت ابنته؟ وربما اعتقد أنه التالي على القائمة؟ أو ربما اكتفى من هذه الحياة.»

قلتُ: «أو ربما أراد أن ينتقم بحرية تامة. إذا مات فاريل، فسيتمكَّن قاتل كاتي من الاسترخاء. وهذا سيجعل قتله أسهل بكثير.» أسندت رأسي إلى يديَّ. وقلتُ: «يا إلهي، هذا يقلب كل شيء رأسًا على عقب.» ثم خطرت لي فكرة. ولم تكن فكرة مبهجة. تهيَّجت مَعِدتي، فرفعت رأسي. وقلت: «لقد قلتِ شيئًا عن أن هذا سيساعدني في فهم القضايا الأخرى. وفهم قضية مقتل بن. ماذا تعنين بما قلتِ؟» خطرت ببالي فكرة ألمعية، ولكني أردت أن أسمع ستيلا تقولها.

ولكنها هزَّت رأسها. وقالت: «أنت تعرف ما أعني بالفعل، يا آندي. لا تجبرني على قولها لك بصوتٍ عالٍ. لا أريدكَ أن تحمِّلني مسئولية مَن صاغ الفكرة بالكلمات.» ثم أمسكت ملفاتها ونهضت. وقالت: «أنا آسفة، يا آندي. آسفة للغاية.»

قلت: «انتظري. اجلسي من فضلك.» ابتعلتُ ريقي بصعوبة. لم يكن من السهل عليَّ أن أطلب معروفًا من أحد، حتى وإن كان مُقرَّبًا مني مثل ستيلا، وربما بدوت في نظرها فظًّا.

بدأت ستيلا تهز رأسها، ثم توقفت عن ذلك. خمَّنتُ أنها استشفَّت من تعبير وجهي أني أريد شيئًا منها. فجلسَت مجددًا. وقالت: «ما الأمر؟»

«إذا كان جاك فاريل لا يزال على قيد الحياة، فإننا بذلك نعرف مَن قتل جوي سكاردينو وبريان كوبر.» كنت أتحدَّث ببطء كما لو أن عرض الأمر بتمهُّل سيجعله أقل إيلامًا.

قالت ستيلا: «ونعرف سبب ذلك.»

أومأت برأسي. وقلت: «اعتقدَ جاك أنهما إما قتلا كاتي بنفسيهما وإما يعرفان مَن قتلها.» مددتُ يدي نحو ستيلا التي أعطتني الملف الأول من دون حتى أن تسألني عما أريد. فتحتُ الملف. وقلت: «والمنطق يقتضي أنه إذا كانت السكين نفسها استُخدمت في قتل كلٍّ من بريان كوبر وبن، فلا بد أنها استُخدمت من قِبَل الشخص نفسه.»

أومأت ستيلا برأسها. وقالت: «هذا يبدو منطقيًّا.»

قلتُ بنبرة صوت فاترة وخالية من أي مشاعر: «هذا يعني أن جاك فاريل قتل بن.»

قالت ستيلا بصوتٍ ناعم: «ويقتضي المنطق أن الدافع هو نفسه.»

شعرت أني سأبكي مجددًا. ولكن لسببٍ مختلف تمامًا هذه المرة.

الفصل السادس عشر

بعد أن انصرفت ستيلا، جلستُ أحدِّق إلى الجدار مدة طويلة. شعرت كأني تائه في عرض البحر. لقد استأمنت بن على حياتي أكثر من مرة، واستأمنني على حياته مراتٍ كثيرة. وطوال سنوات، شكَّلنا فريقًا أدَّى أصعب المهام. كنتُ أشاركه أفكاري. وكان سريعًا في اكتشاف نقاط القوة والضعف فيما يجدر بي قوله. وقدَّمنا معًا إلى العدالة أعتى مجرمي هذه البلاد. ووضعناهم خلف القضبان فترات طويلة من الزمن.

لا شك في أننا مُنينا ببعض الإخفاقات. لم يكن جاك فاريل المجرم الذي بلا سوابق الوحيد الذي يجوب الشوارع. ولكن لطالما اعتقدت أننا فشلنا على الرغم من أننا بذلنا قصارى جهدنا. بدا الأمر لي الآن كأن السبب في فشل بعض القضايا التي تولياناها هو السبب الذي يخشاه جميع رجال الشرطة. لا يبدو أن تلك القضايا فشلت بسبب تقصيرنا، بل لأن شريكي الموثوق به قد خانني.

آلمتني هذه الفكرة كشرطي وكإنسان. كنت أعتقد أنني أجيد الحكم على الناس. لطالما اعتقدت أن حدْسي سيجعلني أعرف ما إذا كان أحد أفراد فريقي قد أصبح فاسدًا. لم يمر بخاطري قطُّ أن أشكَّ في بن. كنت واثقًا بأنه كان شرطيًّا نزيهًا. والأهم من ذلك أنه كان صديقي.

كنا نحتسي الشراب معًا، ونفقد الوعي معًا، ونفيق معًا. كنا نملك القدرة على التعبير والثقة المتبادلة للتحدُّث في أمور يواجه الناس صعوبةً كبيرة في التحدُّث عنها؛ الحب، والخوف، والاحتياج. كنت أختلق له الأعذار أمام زوجته كارن. وتناولت غداء الأحد على طاولتهما. وكنت الأب الروحي لابنه أوين. ولم يخطر ببالي قطُّ أيُّ سبب يدفعني إلى أن أتساءل عما إذا كان نزيهًا.

وحتى بعد ما أخبرتني به ستيلا، كان من الصعب للغاية أن أفكر فيه بسوء. حاولت أن أفسِّر ما اكتشفته ستيلا بطريقة أخرى. التفسير الوحيد الذي توصَّلت إليه هو أن بن كان نزيهًا رغم كل شيء، وأن فاريل قتله لأنه كان يعلم أن موت بن سيُلقي بنا في دوامة من الفوضى، وسيشتِّت انتباهنا عن جرائم القتل الأخرى.

حتى بالنسبة إليَّ، بدا تفسيرًا واهيًا. فلم يكن هناك ما يدفع فاريل إلى الشك في أننا نشك في أنه مات حقيقةً، ومن ثَم، لم تكن ثمة حاجة به إلى تضليلنا. وقتل شرطي تضليل مبالغ فيه للغاية. كان فاريل ذكيًّا. وكان يجدر به أن يدرك أن قتل شرطي من شأنه أن يصيبنا بالهياج. إن قتل بن كطريقة لتحويل انتباهنا بعيدًا عنه أمرٌ مبالغ فيه للغاية.

لا. رغم أنه كان من الصعب بالنسبة إليَّ أن أتقبَّل منطق ستيلا، فإن منطقها بدا صائبًا تمامًا. كما أنه كان يفسر سببَ إشعال الحريق. فمن جانب، كان للتأكد من سرعة العثور على الجثة. ولكنه كان أيضًا طريقةً لربط مقتل بن بمقتل كاتي فاريل.

عندما مرَّت هذه الفكرة بخاطري، شعرت برجفة باردة في أمعائي. ماذا لو كانت الصلة أكبر بكثير؟ ماذا لو كان الحريق يرسل رسالةً أكثر وضوحًا؟ ماذا لو كان بن هو من أشعل الحريق وقتل كاتي؟

قلَبت هذه الفكرة مَعِدتي. كان بن أبًا حنونًا بطبيعته. ولا شك في أنه كان يعي جيدًا مدى الدمار الذي سيحل على فاريل بموت كاتي. ولكنني لم أزل غير قادر على تحديد السبب. حسنًا، لطالما كان بن شرطيًّا مندفعًا. كان يريد التقدم في عمله، وكان يريد تحقيق ذلك سريعًا. ولا يوجد سبب يمنع أن يرغب في تحقيق التقدم السريع على الجانب الآخر من القانون. ربما اعتقد أن الوقت مناسب للتقدم خطوة إلى الأمام.

ولكنه لم يكن يملك القدرة على إدارة إمبراطورية إجرامية كبيرة مثل إمبراطورية فاريل. الأمر الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه هو أنه كان جاسوس فاريل بيننا. وانتهى به المطاف باستفزاز فاريل لسببٍ ما، فهدَّد فاريل بإيذاء زوجته وأطفاله. ربما جاء التهديد في صورة سوقية على غرار: «أعرف أين تسكن.» ولكنه ربما كان كافيًا لأن يفقد بن عقله دفاعًا عن أطفاله.

تأوَّهت بأعلى صوت. كان هذا هو الوقت الذي كنت ألتفت فيه إلى بن لأشركه فيما أفكر به. ولكن الآن لم يعُد أحد معي. ليس معنى ذلك أنني أشك في أعضاء الفريق الآخرين، ومع ذلك، إن كان بن فاسدًا، فلم يعُد أحد فوق مستوى الشبهات بالنسبة إليَّ. لا، كل ما في الأمر أنه بعد خروج بن من المشهد، لم يعُد ثمة أحد يعرف طريقة تفكيري.

لا أحد سوى ستيلا. ولكن ستيلا ليست شرطية. إنها الأبرع في مجالها، ولكنها لا تتظاهر بأنها تعرف كيفية أداء عملي. لا، لن يساعدني أحد في هذه القضية. يجب أن أحل غموضها بمفردي.

قد يكون الزمن هو أحد طرق اختبار صحة هذه الفكرة الجنونية. إذا مات المزيد من الأشرار، فلن يتخطى الأمر كونه حرب عصابات يقضي فيها القوي على الضعيف ليفرض سلطته. ولكن إذا ما توقَّف الأمر عند هذا الحد، فثمة أمر مختلف يحدث.

ولكن أسلوب «الانتظار والترقب» ليس أفضل أسلوب مُتبَع في مكافحة الجريمة. يمكنك معالجة المشكلات عبر عدم فعل شيء، ولكن ستحدث الكثير من الأمور السيئة قبل أن تصل إلى الحل. وحدث بالفعل ما يكفي من الأمور السيئة التي كان عليَّ التعامل معها خلال الأسابيع القليلة الماضية.

أجبرتُ نفسي على الاعتدال في جِلستي، والبدء بتدوين الملاحظات. كان أول ما فكَّرت به هو جر فانسي رايلي وداني تشو من الشارع وإرهابهما. ولكني تخليت عن هذه الفكرة بمجرد أن طرأت على ذهني. إذا كانا على اتصالٍ بجاك الحي، فلن أرغب في إخباره بأننا نعلم أنه حي يُرزق. يمكنني احتجازهما واستجوابهما عن جرائم القتل، ولكني كنت واثقًا من أنهما لن يخبراني بأي شيء، ومن ثَم لن تكون هناك فائدة من هذا الفعل.

نهضتُ من مقعدي، وفتحت باب مكتبي. وقلت صائحًا: «كيرستي.» رفعتِ المحقِّقة بلايث بصرها عن شاشة الكمبيوتر الخاص بها فزِعةً.

وقالت وهي تقفز واقفةً على قدميها: «ما الأمر يا سيدي؟»

قلت: «ابحثي عمَّن رسم لجاك فاريل وشومه، واحتجزيه.»

جعلتني هذه الخطوة أشعر شعورًا جيدًا. ربما كان رسام الوشوم طريقًا مسدودة. ولكني على الأقل كنت أتحرك.

كانت الخطوة التالية واضحة كالشمس. وكان يمكن لأي شرطي مبتدئ في أول يوم عمل له أن يخمِّنها. ولكني لم أرِد أن أقدِم عليها. لم أرِد أن أذهب إلى الأرملة الثكلى وأبدأ في استجوابها.

ولكن كان لا بد لأحدٍ أن يفعل. وكما يُقال، ما حكَّ جلدك مثل ظفرك.

الفصل السابع عشر

كانت كارن لا تزال تبدو كأن شخصًا ما اقتلع قلبها من صدرها وقدَّمه إليها على طبق. كما لو أنه من الخطأ أنها لا تزال على قيد الحياة، فكيف يمكنها أن تفعل أي شيء وقد ماتت روحها؟ كنت قد رأيت هذا التعبير من قبل على وجوه أولئك الذين بقُوا على قيد الحياة بعد موت أحبائهم بطرقٍ عنيفة. ولكنها كانت أكثر من مسَّ روحي؛ فقد كنت أهتم لأمر كارن، وكنت أهتم لأمر الرجل الذي تحزن عليه.

عندما فتحت كارن باب منزلها، لمعت في عينيها بارقة أملٍ ممزوجة بالحزن، كما لو أن وقوفي أمامها ربما يعني أن خطأ فادحًا وقع، وأن بن في الواقع بخيرٍ. ولكنها أدركت بعدما نظرت إلى وجهي أنه لا مفر من الواقع الذي تعيشه.

فألقت بنفسها بين ذراعيَّ وهي ترتجف، كما لو أني أحضرت معي ريحًا باردة. ضممتها إليَّ بقوة. وقلت رابتًا على ظهرها: «لا أزال أشعر بأن قلبي انتُزع من صدري أنا أيضًا.» ولكن كانت عيناي تدوران في الأنحاء، وترى ما حولي من منظور جديد. في الماضي، عندما كنت أُطري على المنزل أو أي من محتوياته، كان بن يتحدث دائمًا بإسهابٍ عن مدى عظمة كارن في اقتناص الصفقات. وكنت أتقبَّل ما يقوله من دون الكثير من التدقيق. لم أتوقَّف قطُّ وأسأل نفسي كيف يمكنهما تحمُّل كُلفة معيشتهما الباذخة هذه بمرتب رقيب في الشرطة.

ولكن بالنظر إلى الأمر بموضوعية أكبر، وليس عبر منظور الثقة المطلقة، بدا أن الأمر يتخطى مجرد الذوق السليم والبراعة في التسوق. فضلًا عن حقيقةِ أنه لا يمكن لأي قدرٍ من الاستثمارات البارعة أن يُحوِّل راتبه المتواضع إلى منزل مُكون من أربع غرف نوم في حي إيلينج الراقي. عندما اشترى المنزل، صدَّقتُ ما قاله لي عن الميراث الذي تركته له خالته.

محض هُراء! إن أمثالنا لا يكون لهم أقارب أثرياء. ولكنه قال لي إنها فازت باليانصيب، وصدَّقته. وأعتقد أني كنت أريد أن أصدِّقه.

قالت: «لم أستوعب الأمر بعدُ، يا آندي.» كان صوتها مبحوحًا، كما لو أنها ظلَّت تصرخ بأعلى صوتها مدةً طويلة. قالت: «لطالما خشيت حدوث ذلك منذ تزوجت رجل شرطة. ولكن عندما مرَّت الأعوام ولم يحدث شيء، بدأتُ في الاعتقاد أنه ربما لن يحدث أبدًا.»

«أفهم ما تقولين. لا أصدِّق ما حدث أنا أيضًا.» وجَّهتها نحو غرفة المعيشة وأجلستها. وقلت: «أين الأولاد؟» ثم جلست بجوارها.

قالت: «إنهم في منزل أمي. لا يجب أن يرَوني على هذه الحال.» نشجت. ثم قالت: «ما الذي حدث له حقيقةً، يا آندي؟ لا يخبرني أحد بأي شيء، وهذا يجعلني أفكِّر في الأسوأ.»

لم أدرِ ما يجدر بي قوله. لم تكن الحقيقة خيارًا مطروحًا. قلت: «لقد طُعن يا كارن. إننا لا نعرف حتى ماذا كان يفعل في منطقة حوض بادينجتون. لا بد أنه كان يتتبَّع دليلًا أو يلتقي مخبرًا. ولا بد أنه أمرٌ طرأ فجأة لأنه لم يخبرني به.»

قالت: «هل عانى؟»

جميعهم يريدون معرفة ذلك. بالنسبة إليَّ، لم أعتقد قطُّ أنه أمر مهم. كون المرء ميتًا هو كل ما يهم. قلت: «ليس لفترة طويلة، يا عزيزتي.» ثم التفتُّ لأواجهها. وقلت: «كارن، أعلم أن بن كان يقول لك إن أهم مصدر للمعلومات في أي قضية قتل هو الضحية نفسها. لذا أرجو ألا تعتقدي أني وغد قاسي القلب عندما أقول لك إنه يجب أن أفحص حاجيات بن.»

قطَّبت كارن ما بين حاجبيها. وقالت: «ماذا تعني بحاجياته؟ ما علاقة هذا بمقتله؟»

«ربما لا توجد أي علاقة. ولكننا لا نحرز التقدم الذي أريد. وكما قلت سابقًا، إننا لا نعرف سبب وجوده هناك أو بمن التقى. ولا يوجد شيء ضمن محتويات مكتبه يدلنا على ذلك. لذا، أريد أن ألقي نظرةً على غرفة مكتبه هنا في المنزل لأرى إن كانت تحتوي على شيء مفيد.»

عقدت كارن ذراعيها أمام صدرها مبتعدةً عني. وقالت: «لمَ قد يحتفظ بشيءٍ من هذا القبيل في المنزل؟ كان يحتفظ بكلِّ ما يخص عمله في مكتبه هناك.»

مددت يديَّ أمامي تعبيرًا عن قلة الحيلة. وقلت: «أنت تعرفين كيف كان. كان يرغب في الترقي. ولا أستبعد أنه كان يعمل على شيءٍ ما في الخفاء حتى يفاجئني به. وهي ليست السابقة الأولى.» كان ما قلته هو الحقيقة، ولكني رأيتُها الآن من منظور مختلف.

أضفتُ قائلًا: «كما أننا نشك في أفراد فرقتنا. فالأشرار الذين نحاول تسليمهم إلى العدالة يمكنهم شراء ذمم بعض رجال الشرطة. ليس ضمن فريق عملنا بطبيعة الحال؛ لا حاجة بي إلى قول ذلك. ولكن من وقت إلى آخر، يحاول ذلك الجاسوس الواحد أن يتسلل عبر دفاعاتنا. لذا، نميل جميعًا إلى التعامل بحذرٍ مع أي شيء نشعر أنه حساس بالفعل.» نظرت إليها بأكثر نظرة أملكها تقول: «ثقي بي.» وقلت: «كل ما يهمني هو أن أقبض على الحيوان الذي فعل ذلك.»

كانت لا تزال تقف بعيدة عني، ولكنها بدت أقل استياءً. شعرتُ كأني وغد دنيء أني اعتمدت على مثل هذا الهراء. ولكن كان لا بد أن أتأكد. دفنتْ كارن وجهها بين كفَّيها وهزَّت رأسها. وقالت: «أنا آسفة، يا آندي. ذهني مشتَّت. أعلم أنك لن يُغمض لك جفن حتى تقبض على القاتل. افعل ما تراه واجبًا.» وأومأت برأسها نحو الرَّدهة.

انحنيت نحو الأمام وعانقتها مترددًا، ثم نهضت واتجهت نحو المخزن المجاور للمرأب. كان عبارة عن غرفةٍ صغيرة مريحة تبلغ أبعادها نحو عشر أقدام في ثماني أقدام، وتحتوي على نافذة قريبة من الأرض ذات زجاج مصنفر تمتد إلى قمة الجدار الخارجي. كان بن قد جهَّز المخزن بمكتب خشبي أسود، ومقعد جلدي، وكمبيوتر حديث، وشاشة تلفاز، وجهاز بلاي ستيشن. كانت جميع أدراج المكتب مفتوحة. كانت جميعها تقول صارخة: «انظر، أنا رجل ليس لديه ما يخفيه.»

وبدا أنها كانت تقول الحقيقة. فحصت كل قصاصة ورق، ولم أجد شيئًا مريبًا. كانت أوراقًا تخص المنزل، والسيارة، والسلع الفاخرة التي كان المنزل يكتظ بها. وكشوف حسابات مصرفية لم يكن بها أي شيء يدعو إلى الريبة.

أوشكت على الاستسلام. كنت واثقًا من وجود المزيد في مكانٍ ما. كانت جميع غرائزي متحفزة تمامًا في تلك اللحظة. كانت غرفة المكتب تبدو كأنها ديكور مسرحي. كانت مثالية أكثرَ من اللازم، وبريئة أكثرَ من اللازم. كنت أتخيَّل بن يسخر مني.

كان درج المكتب الأخير يحتوي على الكثير من الأوراق الشخصية. جواز سفره، وشهادة ميلاده، وبطاقة تأمينه الصحي، ووصيته. ومن منطلق اليأس ليس أكثر، أخرجتها من الدرج وفتحتها. وبدأت أقرؤها دون أن أتوقع أي مفاجآت. وعند منتصفها تقريبًا، قرأت جملة استوقفتني. وسقط قلبي بين قدميَّ وارتفع حتى حلقي في الوقت نفسه.

وجدتها.

الفصل الثامن عشر

ازداد حاجبا كارن انعقادًا في أثناء قراءة الوصية. ثم قالت وقد بدت الحيرة في عينيها اللتين يحيطهما الاحمرار: «ما الذي يعنيه هذا؟»

قلت: «لقد ورثتِ كل شيء. تذكر الوصية الممتلكات الأساسية. ولكنها تذكر أيضًا أن تنتقل إليك ملكية كلِّ ما امتلكه بن، حتى وإن لم يُذكر بالتفصيل في الوصية.»

قالت كارن: «نعم، هذا ما فهمت. ولكن لماذا أدرج في وصيته محتويات خزانته في النادي الرياضي؟ لم يكن بن مشتركًا في نادٍ رياضي. كان بن يمارس تمارينه الرياضية في صالة الشرطة الرياضية. لطالما قال إن النوادي الرياضية للمغفلين الذين يريدون التظاهر بأنهم لائقون بدنيًّا.» قلت: «لقد تعجبت من هذا الأمر أيضًا.» كنت أعرف أنا أيضًا رأي بن في النوادي الرياضية. كما أنه ليس أي نادٍ رياضي. إنه نادي سميثسون. المكان نفسه الذي كان يذهب إليه جاك فاريل كل صباح مع داني تشو وفانسي رايلي. ويبدو أن بن ويلسون يمتلك خزانة فيه. زفرت. وقلت: «أريد أن أفحص تلك الخزانة، يا كارن.»

قطَّبت كارن ما بين حاجبيها مجددًا. وقالت: «هل تعتقد أنه احتفظ بالأشياء التي أراد إخفاءها هناك؟»

قلت: «هذا محتمل. ولكني سأحتاج إلى إخطارٍ منك تقولين فيه إنه لا بأس من أن أفحص محتويات الخزانة.» كنت آمل أنها مشتتة الذهن بما يكفي لأن توافق. كنت أعرف أني لا أملك ما يكفي من الوقت لاستخراج إذن بالبحث.

كنت محظوظًا. قالت كارن: «سأفعل أي شيء من شأنه مساعدتك.» ثم نهضت وبحثت بعينيها عن شيء يمكنها أن تكتب عليه. وفي نهاية المطاف، كتبتُ الإخطار على كمبيوتر بن وطبعته وجعلتُها توقِّعه.

وبعد ما يزيد قليلًا على الساعة، كنت جالسًا في مكتب مدير نادي سميثسون. كان المكتب مفروشًا أفضل من أغلب غرف معيشة أغلب رجال الشرطة الذين أعرفهم. كانت

الفخامة هي ما يهدفون إلى تحقيقه، وقد أصابوا هدفهم. كان المدير رجلًا ذا ملامح حادة في الثلاثينيات من عمره. كنت قد رأيته من قبل في الصور التي التقطناها لجاك فاريل وهو يستمتع بالحياة الراقية في النادي الصحي. ولكنه لم يكن يبتسم في وجهي مثلما كان يبتسم في وجه فاريل. قال: «كل هذا يبدو ...»

قلت: «خارج عن المسار المعتاد للأمور؟ أتفق معك تمامًا. ولكنك تعلم كيف تصبح الأمور عندما يُقتل شرطي. ينصبُّ تركيزنا على عدم تفويت أي شيء.» ابتسمتُ له ابتسامة ماكرة سريعة لم تظهر تجاعيدها إلا عند عينيَّ. وقلت: «أتمنى ألا تخلق مشكلة هنا؟ لقد حصلت على إذن من أرملته، ونسخة من وصيته التي يذكر فيها رقم الخزانة.»

أدار عينيه في مَحجِريهما. وقال: «هل يمكننا أن نتكتم على هذا الأمر؟»

بدت البراءة في عينيَّ. وقلت: «لهذا السبب جئت بمفردي. كان يمكنني أن آتي مع قوة من رجال الشرطة.»

قال وقد امتقع وجهه: «هل معك الأرقام السرية؟»

أشرت إلى الوصية. وقلت: «ها هي ذي.»

صحبني إلى الطابق السفلي حيث توجد غرفة الخزانات الملحقة بغرف تغيير الملابس، التي كانت مكوَّنة من أريكة طويلة تمتد بين صفَّين من أبواب الخزانات الموصدة. أشار إلى خزانة بن، ثم استدار ليقف خلفي. قلت: «شكرًا لك. سأتولى الأمر بمفردي من هنا.» لم يبدُ سعيدًا، ولكنه فهم ما أعني.

كانت الخزانة في الطابق الأرضي. كانت مساحتها تبلغ نحو ثلاثين بوصة في اثنتي عشرة بوصة، وعندما فتحتها، كانت حقيبة رياضية تشغل أغلب المساحة. أخرجت الحقيبة من الخزانة، وأصدرتُ أنَّةً بسبب وزنها غير المتوقَّع. وضعتها على الأريكة الطويلة وفتحت سحَّابها.

إن كانت لا تزال لديَّ ثمة شكوك في حجة ستيلا المقنعة، فقد ماتت جميعها الآن. لم يبِع بن ذمته بالرخيص، هذا مؤكد. كانت الحقيبة مليئة برزم نقود من فئة الخمسين جنيهًا. لم أكن أعلم إجمالي المبلغ في الحقيبة، ولكن لا شك في أنه مُكوَّن من ستة أرقام. قلت: «أيها الوغد.»

لم تنتهِ خيانته عند هذا الحد. كانت الخزانة تحتوي على ظرفَين. كُتب على أحدهما «التأمين». وكان يحتوي على بوليصة تأمين على الحياة دُفعت قيمتها كاملة دفعة واحدة وذات تعويض ضخم. تم التعاقد على بوليصة التأمين تلك منذ عامين، ويبلغ تعويضها

نصف مليون جنيه، جميعها من أجل كارن. لم أصدِّق أنه كان خائنًا طوال هذه الفترة. منذ عامين، كان يملك خمسين ألف جنيه ليدفعها مقابل بوليصة تأمين. وطوال تلك الفترة كان يشكو لي أنه يدفع تأمين سيارته اللعينة بمشقة. اعتقدت أنه لن يكون ثمة شيء أسوأ من ذلك. ولكن كان ثمة أمرٌ أسوأ. كان الظرف الثاني موجَّهًا إلى كارن. لم أتردَّد. وفتحت الظرف.

حبيبتي كارن،

إذا كنت تقرئين هذا الخطاب، فهذا يعني أنني ميت. آسف أني تركتك والأطفال. كل ما كنت أريده هو أن أقضي ما تبقى من حياتنا معًا. ولكن يمكنني أن أضمن على الأقل أنكِ، إن لم أكن معك، فإنك تملكين ما يكفي من المال لكيلا تقلقي أبدًا من تدبير نفقات المعيشة.

أعلم أنك ستتساءلين حتمًا عن مصدر كل هذا المال. لست فخورًا بما سأخبرك به، ولكن منذ فترة، قبضت أنا وآندي على أحد كبار الأشرار في ميدلاندز. كان الرجل قد فقد عرشه لصالح أحد مساعديه. وكان دائمًا ما يحتفظ بمبالغَ مالية كبيرة في أحد مقرَّاته. أعتقد أنه كان يجدر بنا أن نسلِّم المال، ولكن لم يكن أحدٌ يعلم أي شيء عنه سوانا نحن الاثنين، وكان الأمر مغريًا للغاية. كان آندي هو مَن طرح الفكرة، ولكنني لم أحاول بجدٍّ أن أثنيَه عنها. فقررنا أن نخفي الأمر ونقسِّم المال فيما بيننا. اشتريت بوليصة التأمين بجزءٍ من المال وما تبقى منه موجود في الحقيبة.

أعلم أنكِ ستفكرين في فعلِ ما تشعرين بأنه التصرف الصحيح وستشين بي. ولكني أرجوكِ لا تفعلي ذلك إذا كان آندي على قيد الحياة. من أجله، ومن أجل أطفالنا، حافظي على السر، واحصلي على الفائدة القصوى مما تركته لك. لا أريد أن يكبر أطفالي معتقدين أني كنت رجلًا سيئًا. لستُ رجلًا سيئًا يا كارن. كل ما حدث أني استسلمت لإغراء فرصة الحصول على مبلغ كبير من المال. لم أكن أضر أيَّ أحد، ولا أريد أن أضر آندي أو الأطفال عبر كشفِ سرِّ ما فعلتُ الآن.

كارن، لقد أحببتكِ منذ رأيتك للمرة الأولى. وستظل عيناي تراقبانك في كل يوم من حياتك، لأحرسك وأحافظ على أمنك. لطالما كنتِ المرأة الوحيدة التي أحببت.

مع خالص حبي، زوجك بن

قلت مجددًا: «أيها الوغد.» فمع قصته الملفَّقة عن مصدر المال، أخفى أي صلة بينه وبين جاك فاريل أو أي أعمال إجرامية. كما أنه ورَّطني معه في الأمر. لم أكن لأتمكن من تسليم هذا الخطاب للسلطات من دون أن تصبح نزاهتي موضوعًا للشائعات والنميمة لما تبقى من فترة خدمتي.

وكنت أعتقد أنه صديقي. شعرت بنفسي تتألم، ذلك الألم الذي يشعر به المرء عندما يمسك دموعه مدة طويلة.

لم يكن موت بن هو ما جعلني أشعر بكل هذا السوء.

بل ما سبَّبه لحياته من ضرر.

الفصل التاسع عشر

كانت ثمة أخبار جيدة وأخرى سيئة تنتظرني لدى عودتي إلى مكتبي. عادت المحقِّقة كيرستي بلايث حاملة خبر أن جون هوكينز «القرصان»، رسام الوشوم الذي رسم لجاك فاريل وشومه، قد أبلغت صديقته عن اختفائه في اليوم السابق لحادثة الانتحار الزائفة. وكان لا يزال على قائمة المفقودين.

وكان الخبر الجيد أن المربية الإسبانية مانويلا لم تكن بارعة في تغطية آثارها مثل فاريل. كنت قد وضعت تنبيهًا على بطاقتها الائتمانية بعدما غادرت البلاد. وقد أثمرت هذه الخطوة. طبقًا للتقرير الموضوع على مكتبي، كانت قد استخدمت البطاقة في شراء كمية كبيرة من البقالة، وأدوات النظافة، والملابس من أحد الأسواق الكبيرة في محيط بلدة كاليه.

بدأت الأمور تعود إلى نصابها الصحيح. كنا نعرف أن فاريل كان يستخدم قاربه قاعدةً لعَقد الصفقات في أثناء فترة بيع أعماله، وأن فانسي رايلي كان يقله على متن قارب سريع في نهاية كل يوم. وكان من المنطقي أن فاريل يملك قاربًا آخر لا نعرف شيئًا عنه. كما أن هذا يفسِّر سبب أن أحدًا لم يره على الإطلاق. إذا كان يستخدم قاربه للتحرك بين إنجلترا وفرنسا، فسيمكنه التحرك جيئة وذهابًا كما يحلو له. يمكنه أن يأتيَ إلى هنا ليعذب ويقتل، ثم يعود أدراجه إلى فرنسا في الليلة نفسها.

لم أقلِّل من الاحتمالات كثيرًا، ولكن كان هذا جيدًا كبداية. في تلك الليلة، بينما كنت جالسًا إلى طاولة الطعام في منزل ستيلا لأتناول العشاء معها، وبينما كنت أتناول الطعام الصيني الذي قدمته إليَّ، قصصتُ عليها ملخصًا لما اكتشفت. رأيت أنها صُدمت من مدى عمق الفساد الذي غرق فيه بن. قالت: «ماذا فعلت بالنقود؟»

رمقتها بنظرة سريعة بطرف عيني. وقلت: «أعطيت كارن بوليصة التأمين. وأحرقت الرسالة. والنقود لا تزال في سيارتي.»

«وماذا ستفعل بها؟» قالتها ووضعتْ عِصي الأكل من يدها ورمقتني بنظرة صارمة.

قلتُ: «سأتبرع به. نتبرع به إلى حيث يمكن أن يعود على الناس بالخير.» أخذتُ رشفة من النبيذ. وقلتُ: «لقد حصلت كارن على أموالٍ أكثر مما تحتاج إليها.»

مدَّت ستيلا يدها، وأحاطت يديَّ بيديها. وقالت: «لا تلُم نفسك يا آندي. إن ما فعله بن ليس خطأك.»

قلت ومذاق مرير لا علاقة له بالطعام ملأ فمي: «كان يجدر بي أن ألاحظ. كان يجدر بي أن أعرف. كان ذراعي اليمنى، ولم ألاحظ أنه فاسد. كيف أعُد نفسي شرطيًّا وقد سمحت بحدوث ذلك؟»

قالت ستيلا: «لقد اختار مساره بنفسه. اختار أن يحوِّل حياته برُمتها إلى كذبة. لن أجلس مكتوفة الأيدي وأتركك تلوم نفسك على ذلك.»

«أنا لا ألوم نفسي على اختياراته، بل ألوم نفسي على أني وضعت ثقتي بمن لا يستحق.»

ضغطت ستيلا على يدي. وقالت: «على الأقل، أنت محق في ذلك. ولكن لا بد أنه اجتهد كثيرًا حتى يحوز ثقتك. ولا بد أنه كان مرعوبًا من أنك قد تكتشف أمره. وإحقاقًا للحق، إنه يستحق كل لحظة رعب عاشها. أنت رجل صالح يا آندي. وشرطي صالح.»

زفرتُ. وقلت ساخرًا: «لا أعتقد ذلك يا ستيلا. لقد خدعني بن. ولا يزال جاك فاريل يخدعني. ربما كان في فرنسا. وربما كان في قاربه في البحر.» شربت المزيد من النبيذ. وقلت: «وربما كان يجلس الآن خارج شقتكِ يسخر منا.»

«لمَ تعتقد أنه في فرنسا؟»

أخبرتها بأمر مانويلا والبطاقة الائتمانية. تركت ستيلا يدي ونهضت واقفة. وقالت: «لديَّ فكرة.» لا بد أنها فكرة جيدة. فقد تركتْ طعام أحد أفضل المطاعم الصينية في لندن.

تبِعتها حتى وصلنا إلى المساحة تحت الدَّرج التي حوَّلتها إلى غرفة مكتب. جلست أمام الكمبيوتر الذي تتركه يعمل طوال أيام الأسبوع على الرغم من تحذيراتي لها فيما يتعلق بسرقة الهويات والمخترقين. فتحت موقعًا إلكترونيًّا خاصًّا بخبراء الطب الشرعي المتخصصين في اكتشاف طرق لتحديد هويات الجثث. ثم رفعت عينيها نحوي. وقالت: «هلا تحضر لي كأس النبيذ من فضلك؟»

عندما عُدت حاملًا كأس النبيذ، كانت قد بدأت محادثة رسائل فورية مع أحد زملائها.

الطبيبة ستل: «هذا صحيح. إزالة الوشوم.»

جيه بي بي: «بالليزر أم جراحيًّا؟»

الطبيبة ستل: «لا يهم. بأي طريقة. المهم هو المكان. لا بد أن يكون في محيط بلدة كاليه.»

جيه بي بي: «أمهليني خمس دقائق.»

سألتُها وأنا أضع مشروبها بجوار لوحة المفاتيح: «مَن يكون جيه بي بي؟»

أخذت رشفة من النبيذ، وقالت: «طبيب أمراض جلدية من باريس. عملنا معًا في كوسوفو. هو مَن علَّمني التأثير الذي تتركه الوشوم.» قبل أن تقول المزيد، أطلق الكمبيوتر صافرة. كتب جيه بي بي عددًا من عناوين العيادات التي توجد في المنطقة المطلوبة.

جيه بي بي: «العيادة في كاليه تُعَد عيادة عامة. أما الأخرى فأكثر تخصصًا في أعمال الوشوم. التقيتُ مدير العيادة في جنيف، وكان يتحدَّث عن كريم جديدٍ كانوا يستخدمونه مع الليزر لتحقيق نتائج أفضل. هذا الكريم له تركيبة خاصة بهم. إنه يعتقد أن الكريم سيجعلهم أثرياء بمجرد أن يثبتوا مدى كفاءته في إنجاز المطلوب منه. إذا كنت أريد أن أزيل وشومي في شمال فرنسا، أعتقد أني سأذهب إلى هذا المكان.»

الطبيبة ستل: «شكرًا لك يا جون بول. سأشتري لك مشروبًا خلال اجتماع الجمعية الأوروبية للمعلوماتية الحيوية الشهر القادم.»

رفعت ستيلا عينيها نحوي مبتسمة. وقالت: «كنت أتساءل عن سبب وجود مانويلا في فرنسا. لم يبدُ الأمر منطقيًّا إلا إذا كانت هناك من أجل فاريل. الأمر الذي أثار سؤالًا آخر، لمَ كاليه؟ ثمة الكثير من الأماكن الصغيرة على طول الساحل الفرنسي التي تقل فيها احتمالات أن يتعرَّف أحد على فاريل. لا بد من سببٍ وجيه لاختيار كاليه.»

ابتسمتُ. وقلت: «مثل التخلص من وشوم مميزة. ستيلا، أنت أبرع مني كمحقِّقة.» ثم انحنيت وقبَّلتها. «ولكنكِ أيضًا أسوأ عدوٍّ لنفسك. سأذهب الآن للتحدث مع فريقي عن الخطوة التالية التي سنقدِم عليها.»

صاحت: «آندي. أنا واثقة بأن هذا يمكنه الانتظار حتى الصباح، أليس كذلك؟»

مددتُ يديَّ أمامي لأصدها. وقلت وأنا أتراجع نحو الباب: «لن أخاطر بإضاعة الوقت. احتفظي ببعضٍ من طعام العشاء من أجلي فربما أتمكَّن من العودة في وقتٍ لاحق.»

كان يجدر بي أن أنقل فكرةَ ستيلا إلى رئيسي مباشرةً، وأدعه ينسِّق مع الجانب الفرنسي. ولكن كان جاك فاريل ملكي، ولم أكن أريد أن ينسلَّ من بين أصابعي لأن شرطيًّا فرنسيًّا ما لا يملك أدنى قدرٍ من الاهتمام قرر أن يأخذ قيلولته في الوقت غير المناسب.

انتقيت أربعة ضباط، وانطلقنا إلى فرنسا على متن قطار اليوروستار. وبمجرد أن وصلنا، استأجرنا ثلاث سيارات. وبدأنا في مراقبة العيادة على ورديات تمتد كلٌّ منها إلى أربع ساعات، وكنا نرتاح بينها في نُزُل سائقي شاحنات يقع على الطريق السريع القريب.

توفَّر لي الكثير من الوقت للتفكير في موت كاتي فاريل. لقد مرَّ ما يزيد على الأسبوع منذ وفاة بن لم نعثر خلاله على المزيد من الجثث. كما أن قتله كان الوحيد المُعلَّم بالنار. بدا الأمر واضحًا بالنسبة إليَّ. لقد عذَّبه جاك فاريل حتى حصل منه على الحقيقة ثم قتله. ثم بعث لبقيتنا رسالة بتلك النار التي تربط موت بن بموت كاتي. فقط أب محب لأطفاله مثل بن هو مَن سيدرك مقدار الضرر الذي قد يسبِّبه قتل كاتي. لا أعلم لمَ اقترف هذه الجريمة، ولكن جميع غرائزي كرجل شرطة تخبرني بأنه مَن فعلها.

حالفنا الحظ في اليوم الثالث. رأت كيرستي بلايث وشريكها مانويلا وهي توصِّل فاريل بالسيارة إلى الباب الجانبي للعيادة قبل الساعة السابعة صباحًا بقليلٍ. ثم عادت لتصحبه بعد ساعتين. في خلال ذلك الوقت، كان خمستنا جاهزين لتتبعهما.

تبِعناهما أولًا إلى مرسًى خاص لليخوت حيث وضعا عددًا من الأكياس البلاستيكية المليئة بمشتريات من أحد المتاجر على متن قصر عائم كبير. لم نتمكَّن من الدخول من دون مفاتيح، ولكني أخرجت نظارة مقرِّبة وحدَّدت القارب المقصود.

ثم تبِعناهما طوال نحو عشرين ميلًا من الطرق الريفية. لم تكن ثمة أي احتمالية لأن يغيبا عن أنظارنا على تلك الطرق الطويلة الضيقة التي تحفُّها أشجار الحور من جانبَيها. توقَّفا عند فيلا كبيرة حديثة الطراز عند الطرف البعيد من قرية صغيرة أنيقة بدت كأنها ديكور في فيلم سينمائي. بعدما وضعا ما تبقى من أكياس التسوق داخلها، واصلنا السير بضعة أميال أخرى حتى وصلنا إلى القرية التالية حيث احتفلنا في هدوء وتناولنا البيرة.

قالت بلايث: «من الصعب مراقبة هذه الفيلا.»

«لن نحتاج إلى مراقبتها. ثمة طريقٌ واحدة تمر بالفيلا. كل ما نحتاج إليه هو أن نقسِّم أنفسنا. تتجه سيارتان شمالًا، وواحدة جنوبًا. سنتتبَّعهما عندما يغادران.»

لم يخرج أحد بفكرةٍ أفضل. كان هذا يعني أننا سنظل عالقين داخل السيارات، ولكن كان من الممكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك. ولحسن الحظ، لم ننتظر طويلًا.

قبل منتصف تلك الليلة بقليلٍ، أخبرنا الشرطي في السيارة الأولى على الطريق المتجهة شمالًا بأن فاريل قد مرَّ به بسيارته للتوِّ، وكان بمفرده وينطلق بسرعة كبيرة. اتجهتُ وبلايث من فورنا نحو هذه الطريق، وحافظنا على سرعتنا حتى رأينا أنوار مصابيح أمامية

تظهر خلفنا. زِدنا من سرعتنا حتى لا يتمكَّن من تخطينا سريعًا، ولكي نمنح الآخرين فرصةً للحاق بنا.

كانت ثمَّة بضع لحظات شائكة، ولكننا تمكَّنَّا من تتبُّعه حتى وصلنا إلى مرأب سيارات مرسى اليخوت. بينما كان فاريل يتجه نحو البوابات، بدأنا نتحرك، فأحاطت سياراتنا به، وقفزنا منها وثبَّتناه أرضًا. تطلَّب الأمر أربعة منا لكي نسيطر عليه، ولم تكن له فرصة في التغلب علينا جميعًا.

وضعنا الأصفاد في يديه، ووجَّهناه ناحية قاربه بينما صفَّت كيرستي السيارات جانبًا، ووضعت مفاتيحها تحت مقاعد السائقين. سنتصل بشركة تأجير السيارات عندما نعود إلى الوطن.

اتضح السبب الرئيسي لاختيار كيرستي الآن. يمكنها الإبحار بالقوارب. كانت تقود القوارب منذ طفولتها، وكانت تعبر القناة الإنجليزية في قارب والديها الصغير منذ نعومة أظفارها.

وضعنا فاريل في الأسفل في غرفة النوم الرئيسية، بينما جلس بقيتنا الذين لا دخل لهم بالإبحار بالقارب في الصالون نلعب الورق. لم يتوقَّف فاريل عن السبِّ والصراخ فترة، ولكن أصابه التعب قبل أن يصيبنا.

وصلنا إلى الأراضي الإنجليزية في موعد الإفطار. كانت القصة بسيطة. وصلتنا معلومة مفادها أن فاريل في طريق عودته إلى إنجلترا، فقبضنا عليه بمجرد أن لمست قدماه الشاطئ. كانت كلمته في مقابل خمستنا. لم تكن ثمة مقارنة.

في البداية، بدا الأمر كأننا لا نملك الكثير من التُّهم لنوجهها ضده. لم يكن تزييف الانتحار بالتهمة الكبيرة. ولكن سرعان ما تغيَّر الوضع بفضل ستيلا. فقد توصَّلت إلى هُوية الجثة التي اعتقدنا أنها جثة فاريل خطأً. كان الرجل الذي يعمل في الدعارة لصالح فاريل قد شُوهد للمرة الأخيرة يغادر الحانة برفقة فانسي رايلي وفاريل نفسه. كان هذا جيدًا، ولكن كان الأفضل هو اكتشاف السكين التي استُخدمت في قتل بريان كوبر وبن ويلسون. كانت موضوعة في درج أدوات المائدة في قارب فاريل، وكانت بصمات أصابعه تغطيها بالكامل. كان المسمار الأخير في نعش فاريل أن تمكَّن الخبراء من تحديد آثار المتفجرات التي فجَّرت جسد جوي سكاردينو إلى أشلاء في إحدى خزانات القارب.

كان قد مرَّ قرابة عام على ليلة وفاة كاتي فاريل. وكان والدها سيُقدَّم إلى المحاكمة في غضون بضعة أسابيع. الغريب في الأمر أن الكثير من الفئران قد خرجت من جحورها

لتتهمه بارتكاب الكثير من الجرائم بمجرد أن عِلموا أنه قد أُلقي القبض عليه متهَمًا في قضية كبيرة.

كانت رحلة طويلة بالنسبة إلينا جميعًا. كانت كارن ويلسون لا تزال تبحر بلا هدًى في بحور الحزن، وأصبح أطفالها كأرواح تائهة. حافظنا على نظافة سمعة بن، وأعتقد أن الوضع لن يتغير خلال المحاكمة. ولكني أشعر أني دفعت ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. فبعد موت بن، لم أعد قادرًا على أن أثق بأحد. الأمر الذي لم أتمكَّن من إخفائه عن ستيلا. سافرت ستيلا منذ أسبوعين إلى نوكسفيل بولاية تينيسي حيث توجد مزرعة الجثث. أعتقد أن الفائز الوحيد في الأمر برُمته هو مجموعة من الجمعيات الخيرية التي تساعد الأطفال المشرَّدين ومدمني المخدرات والنساء اللائي يُبَعن بغرض العبودية الجنسية.

وكما قلت سابقًا، عندما يموت طفل، يتألم الجميع. وبعض الجِراح لا تلتئم أبدًا.

هنـــداوي